محمد احمد المهدى

تاريخه . سيرته . حياته

تأليف

محمد بن أحمد
الملقب بالداه الشنقيطى

مكتبة القاهرة
لصاحبها : على يوسف سليمان
شارع الصنادقية بميدان الأزهر
بمصر

محمد احمد المهدى

تاريخه . سيرته . حياته

تأليف

محمد بن أحمد

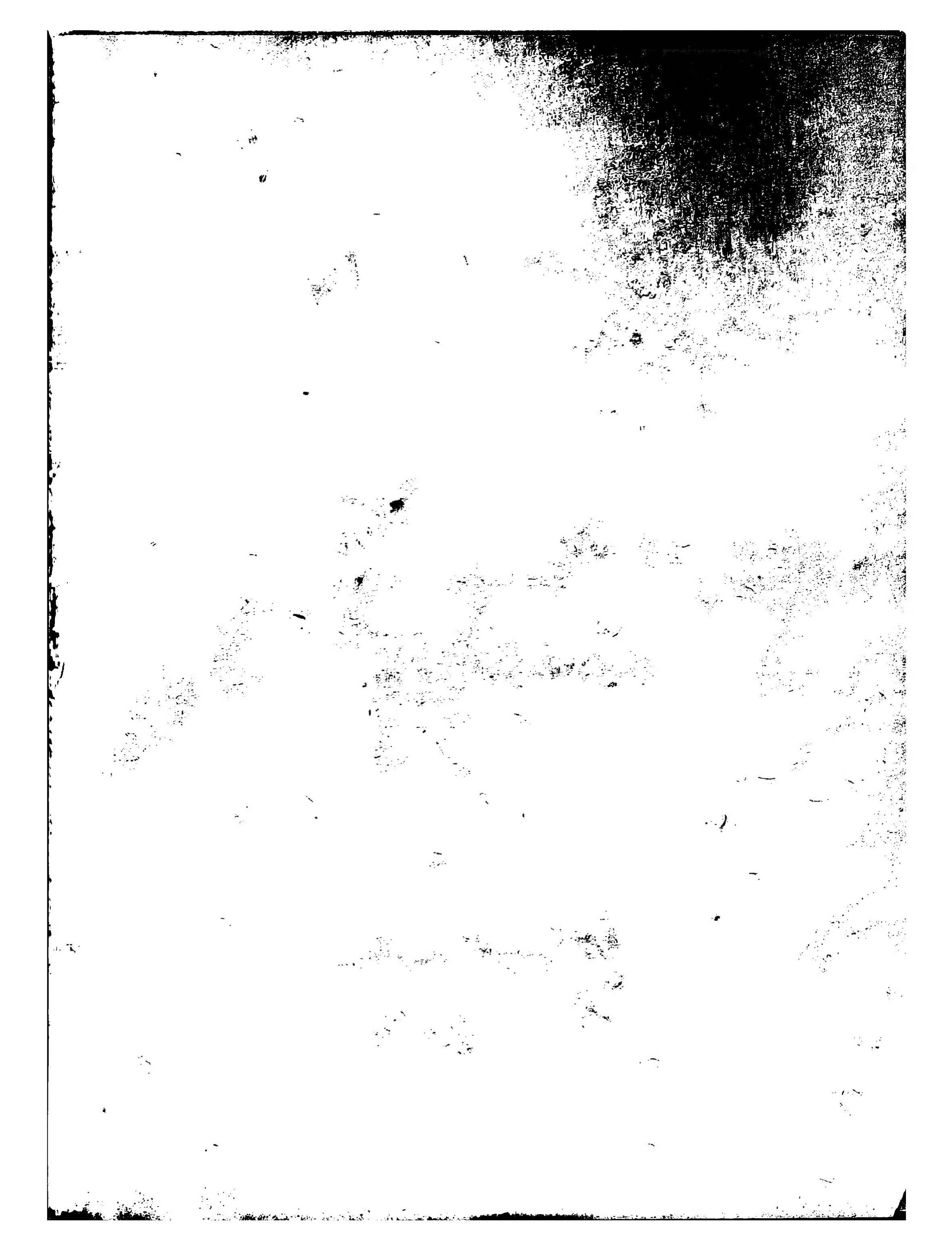
الملقب بالداه الشنقيطى

مكتبة القاهرة

لصاحبها : على يوسف سليمان

شارع الصنادقية بميدان الأزهر

بمصر



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، خالق الخلق جيلا بعد جيل المفضل لبنى آدم على كثير من خلقه بالعقل والتنزيل ، الذى جعل الأواخر يعلمون علم ما علمه الأوائل بكتابة تاريخ كل رجل جليل ، ولولا كتابة الأوائل التاريخ ما علم الأواخر عن تاريخهم أقل قليل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى فضله الله على سائر الرسل وجعله خاتمهم وأخبره بتاريخهم فى كتابه الذى أنزل عليه وفيه ومنه الشىء الكثير وفضل أمته على سائر الأمم كما جاء فى التنزيل .

وبعد : فيقول العبد الفقير إلى الله الراجى منه أن يبلغه فى الدارين أمناه محمد بن أحمد الملقب بالداه الشنقيطى إقليما ، فإن لطول إقامتى بالسودان قد علمت عن محمد أحمد المهدى بن عبد الله وأنصاره الشىء الكثير ، ولم أر من كتب فى تاريخه كتابا مستقلا وإنما أطلعت على نبذ يضعها بعض المؤرخين غير مستوفية للمقصود ؛ فأردت أن أضع كتابا فى تاريخه يشتمل على أكثر المهمات ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل ، والله المستعان على كل الحالات وعليه الاعتماد فى المهمات ، وله الحول والقوة فى الماضى والحال وما هو آت فنسأله حسن الخاتمة عند الممات .

ميلاد محمد أحمد المهدى وصفته وأخذه للعلم والتصوف وتجواله مع مريديه فى البلد

ولد محمد أحمد المهدى سنة ألف ومائتين وخمسين من هجرة سيدنا محمد ﷺ فى شهر الله رجب فى سبع وعشرين منه الموافق ١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤ ميلادية فى جزيرة الخنادق ، ويقال لهالبب الواقعة جنوب مدينة العرض قاعدة إقليم دنقلا ، واسم والده عبد الله بن فحل واسم والدته جاره ، وله أخوان محمد وحامد وأخت اسمها آمنة ، وفى سنة ميلاده أجدبت بلادهم بسبب انخفاض النيل فهاجر أبواه وإخوته وهو رضيع لم يبلغ ثلاثة شهور ، واستوطنوا قرية تسمى بكررى شمال أم درمان بنحو خمسة عشر ميلا ولم يحل عليه الحول حتى توفى أبواه إلى رحمة الله عز وجل فكان فى كفالة أخويه وأخته فكفلوه أحسن كفالة وربوه أحسن تربية ، ولما بلغ السابعة من عمره ذهب إلى الفقيه الهاشمى ، وكان مشهوراً فى تلك الجهة بتعليم القرآن لأولاد المسلمين بغير أجرة ، وهو يسكن فى شرقى النيل بقرية محاذية لقرية كررى فقرأ عليه القرآن إلى أن حفظه ، ثم ذهب إلى رجل من أهالى شنقيط بالخرطوم يسمى الشيخ محمود ، وكان عالما جليلا وكان يعلم الناس الفقه وغيره فتعلم عليه ثم ذهب إلى الشيخ محمد الخير وهو رجل عالم جليل من علماء السودان يسكن قرب بربر فتعلم عليه ، وفى سنة ١٢٧٧ هجرية عاد إلى وطنه بعد ما حفظ القرآن وتفقه فى الدين ، ثم أراد أن يأخذ الطريقة الصوفيه على شيخ من شيوخ الصوفية فى بلده ، فاختار لذلك الشيخ محمد شريف نور الدائم حفيد

الشيخ أحمد الطيب أحد خلفاء الشيخ محمد السمان المدنى نسبة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فأخذ عليه العهد ، وكان بعد ما أخذ عليه العهد يجل شيخه غاية الإجلال ويخدمه بلا توان ولا ملال ، وكان شيخه ينظر إليه نظر حب وإعجاب ، وكان شيخه كثيراً ما يصادفه قائماً يصلى فى محل لا تراه العيون وهو يبكى بكاء الثكلى ، فإذا رآه على هذه الحالة أعجب به غاية الإعجاب ، وقال فيه شيخه هذا : لقد جاءنى فى عام ١٢٧٧ زع ؛وضع على جبل السلطان فى شاطىء البحر :

يروم الصراط المستقيم على يدى	فبايعته عهدا على النهى والأمر
فقام على نهج الهداية مخلصا على يدى	وقد لازم الأذكار فى السر والجهر
أقام لدينا خادما كل ليلة مخلصا على يدى	تجل على أهل التواضع فى السر والجهر
كطبخ وعجن واحتطاب وغيره	ويعطى عطاء من لا يخاف من الفقر
وكم صام كم صلى وكم قام وكم تلى	من الله لا زالت مدامعه تجرى
وكم بوضوء الليل كبر للضحى	وكم ختم القرآن فى سنة الوتر
لذاك سقى من منهل القوم شربة	بها كان محبوبا لدى الناس فى البر

ثم إن شيخه رآه أهلا للدعوة إلى الله فألبسه خلعة المشيخة وأذن له بإعطاء العهود وإرشاد الناس إلى الحق وتسليك المريدين الطريقة ؛ ثم جددا الطريقة بعد ذلك بمدة على الشيخ الذى يقطن بالحلاويين بالجزيرة ، وكان عمر الشيخ القرشى إذ ذاك نحو تسعين سنة ثم بدا للمهدى أن يذهب إلى ناحية هادئة ليتفرغ للعبادة وتطهير النفس ورياضتها لتسلك الطريق المستقيم ، فوقع اختياره على جزيرة أبا فى بحر النيل الأبيض ، وكانت هذه الجزيرة كثيرة

الأشجار والنبات ، فكلم أهله وكانوا يسمعون كلامه ويحبونه غاية المحبة ومعجبون به غاية الإعجاب ، فأخبرهم بقصده وأنه يريد منهم أن يرتحلوا معه رحل نقلة إلى هذه الجزيرة لتكون له ولهم دار إقامة ، وسرعان ما لبوا دعوته فرحل هو وهم إلى هذه الجزيرة سنة ١٢٧٧ هجرية .

ثم بنى مسجدا للصلاة ومعهدا لتدريس العلم ، فتسامع به الناس وهرع إليه سكان الجزيرة من كنانة وغيرهم من قبائل العرب من كل مكان وتدفقوا يأخذون عنه العهد بكثرة ويسمعون إلى وعظه وإرشاده عقب الصلاة فيحدثهم عن تعاليم الإسلام وسموها ويكلمهم بعباراته القوية التى تقع فى نفوس سامعيها أشد من وقع النبل فى الشيء اللين ، ويحدثهم على التمسك بالدين والعمل به والجهاد فى سبيل الله لوجهه والانصراف عن ملاذ الدنيا وشهواتها الفانية .

وفى أثناء إقامته بجزيرة أبا أراد أن ينقطع عن هذا العالم ، فحفر غارا فى الأرض فى هذه الجزيرة وانقطع فيه للعبادة ، وكان إذا خرج منه يلتف حوله أتباعه ومحبوه فى زى الدراويش ، ومعنى دراويش : درى عن حقيقة الله وشريعته فاعترف لله بالوحدانية وللرسل بالرسالة ، لباسهم الجبة المرقعة والطاقية ذات القرون والمنطقة والسبحة الطويلة ، فكان يجول بهم ما بين دنقلا وسنار ، وما بين سنار وكردفان داعيا للانضمام إليه وأخذ العهد عليه ، وبدأ السودان يشهد نوعا جديدا من المواكب ، فالطبول تضرب بين يدى المهدى فيملأ دويها التلال والسهول ، والأعلام ترفرف وجموع الدراويش تسير يشق تهليلها وتكبيرها عنان السماء يتقدمهم محمد أحمد المهدى وهو رجل

طويل القامة أسمر اللون عريض المنكبين مفتول الساعدين ضخم الجثة عظيم الهامة واسع الجبهة أقنى الأنف واسع الفم والعينين مستدير اللحية خفيف العارضين أسنانه كاللؤلؤ وفى فكه الاعلا فلجة بها كان يكنى ، فمحبوه يقولون يا أبا فلجة ، فكان غاية فى الجمال ، وكان دائم الابتسام متواضع يقرب المساكين ويجلس على الارض ويرضى بالقليل من القوت ولا يتشهى ولكن كان يأكل ما وجد ، وكان ميله إلى الرديء من المأكول أكثر ، وكان يلبس ملابس مرقعة ، ويتعمم على قلنسوة من نوع ما يتعمم به أهل مكة ، ولعمته عذبة يرسلها على منكبه الايسر ويضع على منكبه رداء ويتمنطق بمنطقة ، ويلبس نعلا يشبه نعال أهل مكة يقال لها السعدية ، ويتوكأ على عصا طويلة مصنوعة من النحاس مكسوة بجلد أوعصا من النوع المعروف باسم الخيزران وكان دائم الإطعام .

ثم ذهب المهدى مع أتباعه إلى الشيخ القرشى لزيارته ثم سافر من عنده لجزيرة أبا ثم توجه منها إلى كردفان فصادف إقبالا عظيما من الناس ، ولاسيما الذين عاهدوه على نصرته ، ثم نزل بالابيض وهى الآن عاصمة كردفان وفيها نحو مائة ألف نسمة وفيها سبع مساجد ؛ تقام فيها الجمعة والمؤلف إمام أحدها ، وفيها مدارس للبنين والبنات وفيها أسواق عامرة ، ولها وارد كبير من المواشى والصمغ والسمسم وحب البطيخ وغير ذلك ؛ فنزل ضيفا على إلياس باشا ولد أم برير من قبيلة الجعليين و بيته الآن مجاور للمسجد الذى يصلى فيه المؤلف وفى ذات يوم سمع ضوضاء الطبول وآلة الطرب ورأى من الناس الدهشة والاستغراب ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له إن فلاناً النخاسى وهو نصرانى

أمرنى أقتل بالأبيض فى فتح المهدى لها . بعد ذلك يريد أن يتزوج بغلام اسمه أحمد قرفه وهو مشهور بقرف أكثر من اسمه . وهو بربرى الاصل ومسلم وإطلاق الزواج على هذا المنكر من باب الشبهة لانه استعمل فيه فرج كفرج الزوجة . وهذا أعظم منكر شوهد فى الدنيا .

وبلغنى أن أحمد هذا اجتمع بعد ذلك بالمهدى بالخرطوم وتاب على يده وعاش بعد المهدى . وكان يبيع السعوط وهوعشبة التمباك يدق ناعما ويجعل فى الفم فى بعض البلاد وبعضها فى الانف . وفى السودان الغالب فى بلدهم استعماله فى الفم . وللعلماء فيه خلاف . فبعضهم يحرمه وبعضهم يقول بكراهيته والمؤلف يقول بأنه شبهة . والشبهة ما تجاذبه أدلة الحل والتحريم . وكان يواظب على الصلوات الخمسة فى المسجد . ويصوم الخميس والإثنين فلم يصدق المهدى بالخبر . وأخيراً دعاه اثنين من أتباعه فذهبوا إلى محل هذا المنكر الذى تكاد السموات تتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هداً . فوجدوا المدعوين والموائد ممدودة والطبول تضرب وجىء بشخص يلبس عمامة وطيلساناً من أهل الفساق يتزيى بزى العـــالم فأجرى صيغة العقد . فرجع الرجلان وأخبرا المهدى بالحاصل .

ولما تحقق المهدى صدق الخبر ذهب بنفسه ومعه بعض أنصاره . وعندما شاهد هذا المنكر وليس من رأى كمن سمع لم يتمالك أن جرد سيفه ورفعه ليضرب به عنق النخاسى وقرفه ولكل من قابله من أولئك الفسقة الضالين فمسكه أنصاره وحماوه إلى منزله فاجتمع معه جماعة من المشايخ وذهبوا إلى الحكومة يشكون إليها أمر هذا المنكر فقوبلوا بالإهانة والازدراء وقال

لهم مأمور الضبطية : الدنيا حرية . فرأى المهدى أنه لا وراء هذا من الفساد والتجاهر بالمنكرات إذا لم يمنع فاعلها ينزل عقاب من الله ويعمم الفاعل وغيره قال الله عز وجل :

« واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقام » .

وقال الشاعر :

إذا شاع فى الارض فساد ومنكر ۔ وليس بها ناه مطـــاع وزاجر
ففـــر ولا تقيم ببـــلدة ۔ يموت بها عرف وتحيي المناكر
فإن عقاب الذنب حين خفـــائه ۔ يخص وإن يظهر يعم المجـــاور

ثم رجع المهدى إلى جزيرة أبا وكان شيخه الشيخ القرشى قد توفى فجمع نحو ثلاثمائة رجل من أتباعه وبنى على شيخه قبة وختن أنجاله وكان بنائه لهذه القبة سنة ١٢٩٥ وفى زمن بنائه للقبة جاءه الخليفة عبد الله وهو رجل أبيض مربوع القامة وهو الذى تولى الامر بعده بوصاية منه واسم والده محمد وملقب بثور شين ومعناه ثور قبيــح . وهو لقب مدح لأن أخواله ماشيتهم البقر ويعدون الثور له الجرأة والقوة . واسم والدته أم نعيم قبيلة يقال لهـا التعايشة واسم جده على وهو من المغرب فاستوطن بلاالتعايشة وتزوج فيهم فرزق محمد المذكور وأحمد المشهور بلقب دبى وهو والد محمود الذى صار بعد ذلك أميراً فى المهدية .

وقد ولد الخليفة عبد الله بجهة الـكلـكة جنوب دار فور بالقرب من

شيمكان وأخواله التعايشة أهل بادية يسكنون فى هذه الجهة ويعيشون بألبان الماشية وجل ماشيتهم البقر ولذا يسمون بالبقارة . وكل قبيلة فى السودان غالب ماشيتها البقر يقال لها البقارة وبعد عودة المهدى من الحلاويين أخذ يدعو الناس للبيعة على الطاعة فبايعه خلق كثير من قبائل الأعراب النازلين حول جزيرة أبا منهم قبيلة كنانة ودقيم ومن أهم قبيلة دقيم الخليفة على حلو وكان أول عهده بعلم القرآن الشريف . وكان المهدى يستخلفه على محله بجزيرة أبا كلما سافر إلى أى مكان . وهاتان القبيلتان معروفتان بالشجاعة وقوة البأس .

واستمر المهدى يدعو الناس سراً من سنة ١٢٩٧ هجرية . وكانت مقصورة على أخصائه والمعتقدين فيه وبعض مشايخ الطرق . وسرعان ما تكاثر أتباعه فأصبح له دعاة فى كل مكان ما بين زعيم قبيلة وتاجر كبير وموظف حكومة . ثم انتشر اسمه فى ربوع السودان وصارت السفن والإبل والخيل والحمير تأتى بالوفود الكثيرة إليه من كل صوب لتبايعه وتجاهد معه إلى سنة ١٢٩٨ هجرية . ثم أرسل منشوراً إلى جميع الذين عاهدوه بالطاعة يحضهم على الهجرة اليه والجهاد معه . وأرسل نسخاً من هذا المنشور الى بعض العلماء بالخرطوم منهم الشيخ الأمين الضرير رئيس العلماء بالسودان فأطلع الشيخ الأمين الحكمدار محمد رءوف باشا على المنشور حالا انتدب الحكمدار أبا السعود بك العقاد ومعه جماعة الدناقلة يسكنون بالخرطوم يبلغون المهدى أوامر الحكمدار وأنه يدعوه الى الحضور عنده فسافروا على الباخرة الفاشر . ولما وصلوا الى جزيرة أبا قابلهم كل ما فيها بالتكبير . وكان المهدى يتعبد فى الغار فأخبرهم بهم فجله

الى منزله ثم أذن لهم بالمقابلة فدخلوا عليه والسيوف مسلولة على رءوسهم من أنصار المهدى فقال له أبو السعود بك ان الحكمدار يدعوك الى الحضور عنده فقال له المهدى لست بذاهب اليه ولا حاجة لى فيه فقال له أبو السعود ياسيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الأيسر . وقال أنا ولى الأمر الآن . فقاموا من عنده ورجعوا وركبوا على باخرتهم ورجعوا الى الخرطوم .

أول موقعة بين الحكومة والمهدى بجزيرة أبا

وكان ذلك فى أوائل شهر رمضان سنة ١٢٩٨ هجرية

ولما عاد الرسل الى الخرطوم وقصوا على الحكمدار محمد رءوف باشا مادار بينهم وبين المهدى وأخبروه برفضه الذهاب اليه وبقوله انه هو ولى الأمر عول على ارسال قوة عسكرية تقبض عليه وتأتى به أسيراً وان هو خالفها أردته قتيلا . فانتدب بلوكين من المشاة المنظمين وعددهم نحو مائتين ومعهم مدفع من الطراز الجبلى مع ما يحملونه من البنادق وعين ضابطين وهما ابراهيم على وعلى عزم وسير معهما أبا السعود العقاد فسافروا على باخرتين ووصلوا الى جزيرة أبا قبل غروب الشمس . وقد رأى المهدى وأنصاره الباخرتين وعلموا عن حقيقة الجيش الذى فيهما ولما ألقت الباخرتان مراسيهما بالجزيرة نزل الجنود الى الشاطىء وأخذوا فى الأهبة والاستعداد للزحف على محل المهدى وكان السير متعذراً بسبب الوحل . وبينما هم سائرون والليل متعكر وقد مضى أكثر من نصفه والطريق فى غاية الصعوبة واذا بالمهدى وأنصاره ينقضون عليهم من كل مكان رافعين أصواتهم بالتهليل

والتكبير حتى تخيل لهم أن الوادى كله أنصار وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح الطويلة فاختلطوا بهم اختلاط الماء باللبن ولم يمهلوهم أقل امهال فلم يتمكنوا من ترتيب الديام ودارت الحرب رحالها فضربت المدافع واشتغلت السيوف والرماح فلم تر إلا رأساً بالحسام طائرا وبعد ساعات ركن جيش الحكومة الى الفرار فولوا الأدبار وسيوف الأنصار تقطع فى رءوسهم وسواعدهم حتى مزقوهم شر ممزق ولم يبق منهم الا شرذمة قليلة وصلت بهم الى الباخرتين فركبتهما ولازت بالفرار راجعة الى الخرطوم وفيها أبو السعود ومن نجا معه وقتل فى جملة من قتل الضابطان وغنم المهدى أسلحتهم وذخيرتهم .

هذا ماكان من أمر جيش الحكومة . وأما ماكان من أمر المهدى فإنه رأى أن الحرب قد بدأت بينه وبين الحكومة بالفعل . وأن الجزيرة لم تعد صالحة مركزاً للجهاد نظراً لتعرضها لهجات الحكومة وقربها من الخرطوم . فعمل مراكب وقطع عليها هو وأنصاره الى الضفة الغربية . ولما رسى بالشاطىء الغربى التف حوله كثير من رجال قبيلة دقيم وكنانة وغيرهم وقدموا له الأقوات ومايحتاج اليه وبايعوه على الطاعة والجهاد فى سبيل الله . وهذه صفة البيعة التى كان الناس يبايعون بها المهدى :

(بايعنا الله ورسوله وبايعناك على الطاعة والجهاد فى سبيل الله . وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفترية ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر . بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله) .

ثم قال المهدى للناس انه سيتوجه إلى جبال ماسه وقدير فى مديرية فشودة ويحيط بجبل قدير جبال كثيرة سكانها النوب وهم مجوس عراة . والآن دخل جيلهم الإسلام ولبسوا كالناس . ويسكن فى سفح الجبل قبائل من الأعراب ويبلغ عدد الذين رافقوا المهدى نحو عشرة آلاف مقاتل سلاحهم السيوف والرماح . وبعد ما وصل الى قدير أرسل منشوراً عاما يحث فيه جميع أنصاره إلى الهجرة اليه والجهاد معه .

وفى الشمال الغربى فى جبل قدير جبـــال تبلغ المائة أوأكثر متدانية من بعدها يطلق عليها اسم جبال تقل وسكانها عنصر يعرف بهذا الإسم متناسلون من قبائل العرب والنوبة . ولغة أكثرهم العربية وكلهم يخضعون لملك يدعونه بالملك وبلادهم خصبة . وكان الحاكم فى فشودة راشد أمين بك .

ولمـا وصل المهدى إلى قدير قام راشد بحملة وهى جيش الحكومة إلى قدير ومعه كيكوم زعيم قبائل الشلك فنهض اليهم المهدى بالإنصار وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح السنينة اللاذعة ، وكانت أكثر أسلحتهم . غير أن هذه السيوف والرماح بأيدى رجال كالليوث فى الشجاعة وبمعرفة الحرب فى غاية البراعة ، وكان الموت فى نصرة المهدى أشهى إليهم من الحياة واصطلاء نار الحرب أشهى عندهم من الشهد فى الكاسات ، وعندما التقى الجمعان ودارت رحى الحرب والتقى الأبطال بالأبطال والرجال بالرجال وامتلأ الجو بأصوات المدافع وصار كلا الطرفين بين التقدم والتأخر ، ولكن الأنصار كانوا على ثبات شديد ، وعندما رأى جيش الحكومة شجاعة الأنصـــار وسيوفهم ورماحهم الطوال وقد اختلطوا بهم أشد الاختلاط وأنهم لايولون الأدبار

ركن إلى الفرار ففتك به الأنصار ، وكان يزيد على ثلاثة فصائل فغنم المهدى أسلحتهم وذخيرتهم فجاءت هذه المسألة بالنسبة للحكومة ضغثا على إبالة حيث زادت قوة المهدى فأصبح عنده من الأسلحة النارية التى غنمها من الحكومة مايزيد على ألف بندقية من طراز منجتون .

وفى إقامته بقدير وفد إليه الشيخ نواى زعيم قبيلة الحوازمة التى تسكن بين دارفور وكردفان وماشية هذه القبيلة البقر وإسماعيل بن الأمين ولندوق زعيم قبيلة الأفديات وهى قبيلة معروفة بعدم إكرام الضيف ومع كل واحد منهما مائة فارس بايعاه على الطاعة .

تعيين عبد القادر حلمى باشا حاكما للسودان

وعزل محمد رءوف باشا من الحكمدارية

وحملة يوسف باشا الشلالى

فى ربيع الثانى سنة ١٢٩٩ هجرية فصل محمد رءوف باشا من الحكمدارية وعين بدله عبد القادر باشا حلمى ، وبعد عشرين ليلة غادر محمد رءوف باشا الخرطوم قاصداً مصر . وناب عنه فى إدارة شئون الحكمدارية وكيلها ججلرا الألمانى وتعهد للحكومة بالقبض على المهدى إن هى ساعدته بالجيوش ، فجردت الحكومة ستة آلاف جندى تحت قيادة يوسف باشا الشلالى منهم الثلث من الجنود النظاميين وضابط برتبة قائم مقام واثنان برتبة بكباشى واثنان من مشاهير الصناجق قواداً للجنود غير النظامية الباشا بوزق وغادرت الحملة

الخرطوم فى منتصف جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ هجرية على عـــدة بواخر قاصدة فشودة ومنها إلى قدير وبعد وصولها إلى فشودة أرسل يوسف الشلالى كتاباً إلى المهدى يدعوه فيه إلى الطاعة والتسليم ويحذره فيه غاية التحذير وعرض فى خطابه بكثير من الشتائم التى لاتليق صدورها من فرد من الأفراد إلى مثله .

فكيف بالمهدى أطنب فيها من الإنكار والتخويف وظن أن المهدى ممن ينقاد وينحل عزمه بالتخويف وهيهات فإن المهدى ذو عقل ثاقب وعزم على الأمور صابر ولم يقدم على هذا الأمر إلا بعد ما استعمل الروية وعرف العاقبة وما كانت كتابة يوسف إلا كتابة جندى لا يعرف كيف يكتسب ولا كيف يخاطب ولا لوم عليه لأنه جنـــدى لم تكن له معرفة بالعلم ولا الكتابة بل كان أمياً وقد ضربت عن ذكرها صفحاً فرد عليه المهدى وهذا نص رده :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله المنتقم القهار والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله الأخيار وبعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن السيد عبد الله إلى يوسف حسن الشلالى ومن معه من الجموع وصل إلينا كتابك وصار معلوماً لدينا وقوفكم على الإنذار ومجاهرتكم بالإنكار وكان قصدنا أن نضرب عن إفادتكم صفحاً ونطوى دون إفادتكم كشحاً ولكن أردنا أن نبين لكم غلطتكم فيما ادعيتموه بالبراهين السواطع أما قولك إن إرسال الطلائع تنافى دعوى المهدية لأن علم الغيب ضرورى لها فنقول هذا جهل منك بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه كان يرسل الطلائع كحذيفة اليمانى وبلال

والزبير بن العوام فلم يكن ذلك منافياً لرسالته صلى الله عليه وسلم فكيف يكون منافيا لمهديتنا؟ وقلتم إننا قتلنا جملة من المتوطنين بهذا المكان ظلما وعدوانا فهذا كذب صراح لأننا لم نقاتل إلا من حاربنا وقلتم إننا قتلنا العساكر غدراً فى الوقعتين أبا وقدير فهو قول باطل لأننا ما بدأنا بالقتال بل هم بدءونا بالقتال وما جاءوا إلا لقتالنا وقلتم إن هؤلاء العساكر ما أرسلتهم الحكومة لحربنا بل ليقفوا على ما عندنا من الأدلة فهو باطل لأن الحكومة لو كانت تقصد ذلك لما أرسلت العساكر الأغبياء وأعطتهم السلاح النارى بل كانت أرسلت العلماء وأهل الدراية بهذا الشأن وقلتم اطلبوا من الله كرامة تدل على مهديتكم فاعلموا أننا لانطلب من الله كرامة لمهديتنا بل نقف عند حد عبوديتنا فإن أظهرنا كرامة فبمشيئته ولحكمة يعلمها سبحانه وتعالى ونجهلها وقلت لا تغتر بإسماعيل الأمين ونواى . فاعلم أنى منصور على كل من ناوأنى من الثقلين وقلتم إنكم أمسكتم أربعة رجال من طليعتنا وأرهقتوهم تعذيباً فاعلم أنهم مأجورون ولابد أن يوقعكم الله بأيدينا وتذوقوا العذاب بما صددتم عن سبيل الله . وقلتم إنا أقدينا أمركم بعدم محاربتنا حتى نتعدى الحدود وهذا قول لا يفوه به غير ضعفاء العقول لأننا تعدينا حدودكم وخالفنا مقصودكم من يوم قتلنا عساكركم بأبا . وبعد هذا ليس بيننا وبينكم غير الحرب والطعان والسيف والسنان والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى ولعنة الله على من كذب وتولى .

ولما وصل رد المهدى إلى يوسف غضب غضباً شديداً وأمر بزحف الجيوش فى الحال فزحف من فشودة فى العشرة الأواخر من جمادى الآخرة .

هـذا ما كان من أمر يوسف ، وأما ما كان من أمر المهدى فإنه أحصى من معه من المقاتلين فكانوا إثنى عشر ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وبأيديهم السيوف القاطعة والرماح والبنادق ذات الطلقات المتتابعة ، وهى بأيدى رجال على الحرب بواسل وفى الوغى ليوس جواسر ، فزحف بهم للقاء يوسف فى الطريق ، ورجا من الله أن يكون حليفه النصر والتوفيق ، وبات عند سفح جبل الجرادة ، والحلة وهى جيش الحكومة تبعد عنه مسافة عشرة أميال أو أكثر ، وفى اليوم الثانى زحف المهدى بالأنصار على جيش الحكومة فتحصن جيش الحكومة داخل زريبة ، وبدأت الحرب ودارت رحاها بين الفريقين ، وكان جيش الحكومة على أتم استعداد وتنظيم فأطلق مدافعه بنظام وثبات فات منها عدد كثير من رجال الأنصار ، من مشاهيرهم أخو المهدى حامد والشيخ آدم الأعيسر وغيرهم ، فتقدم المهدى والأنصار تحت نار من المدافع والرصاص كالمطر حتى دنوا من الزريبة ، فنزل المهدى عن راحلته فاستقبل القبلة وصلى ركعتين وسأل الله النصر .

وما كاد يفرغ حتى اقتحم الأنصار المربع ودلجوا فى الزريبة ودارت رحى الحرب وحمى الوطيس واختلط الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال واشتغلت السيوف والرماح فلم تر إلا رأساً طائراً وجباناً حائراً ، وعندما رأى رجال يوسف ماحل بهم وكنوا إلى الفرار وولوا الأدبار واشتغلت فيهم سيوف الأنصار ورماحهم فمزقوهم كل ممزق وتركوهم أشلاء للعقبان والرخم ، وقتل القائد يوسف وهو موليا الأدبار ، وقتل قواد جيشه حالة الفرار ، ثم دخل بهم المهدى الزريبة وأقام بها ثلاثة أيام مشتغلا بجمع الغنائم ، ثم عاد إلى قدير

ونجا من جيش الحكومة نحو مائة رجل فلحقوا بفشودة ، وبعد وصولهم والرعب قد ملأ قلوبهم أخبروا بما حصل وشاهدوه ، وليس الخبر كالعيان وأنهم لاقوا رجالا لا يصطلى لهم بنار ولا يشق لهم غبار ، فوارس عند اللقاء اللقاء ، قوى السواعد فى الوغى .

ترتيب جيش المهدى

شاع نصر المهدى هذا فى كل الجهات ، وأقبل الناس يفدون إليه زرافات زرافات ثم بدأ للمهدى وأن ينظم جيشه فرتبه على ثلاث فرق : الفرقة الأولى مؤلفة من قبائل السودان الغربى ، ورايتها سوداء ، وقائدها الخليفة عبد الله . والثانية رايتها خضراء ، وقائدها الخليفة على بن محمد حلوا وهى مؤلفة من القبائل التى تسكن على ضفتى النيل الأبيض . والقبائل التى تسكن الجبال التى حول جبل قدير . والثالثة من قبائل السودان الأوسط وهم أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وقائدها ابن عم المهدى الخليفة محمد شريف بن حامد ، وجعل القيادة العامة لأخيه محمد بن عبد الله ، ولقبه بأمير جيش المهدية ، وأسند القضاء إلى الشيخ أحمد جبارة ، وهو سودى الأصل ، ولقبه بقاضى الإسلام وعقد له راية على ذوى قرابته ومواطنيه وجعلها تابعة للخليفة محمد شريف ، وجعل أحمد بن سليمان أمين بيت المال ، وهو من قبيلة المحس بدنقلة ، وكان صاحب سر المهدى وشورته فى الأمور المهمة .

وما كان المهدى يصل إلى جبل قدير حتى لحق به كثير من أعيان السودان الأوسط وبايعوه على الطاعة والحرب معه ، وكتب لبعضهم بالولاية على

بعض الجهات ، وكان من هؤلاء المهدى بن أبى رءوف زعيم قبيلة جهينة التى تسكن جنوب سنار وهى قبيلة كبيرة من قبائل البادية ، والشيخ مضوى المرسى وأصله من قرية العليفون ، وأحمد بن المكاشف ووالده المكاشف رجل من كبار الصالحين وله أتباع وقريته قريبة من سنار وأصله من قبيلة الكواهلة التى تسكن حول سنار ورجالها مشهورون بالكرم والشجاعة .

وفى أواخر شهر جمادى الأولى علمت المديرية بشخوص أحمد المكاشف فأمرت بمصادره أمواله فلم يعثر على مال ، فأخذ أخوه عامر وضرب ولم يطلق حتى أفتدى بألف ريال ولم يكن عنده غيرها . وبلغ الخبر ناظر القسم محمود سعد فاحتدم وقال : كيف يدفع هذا المال لمندوب المديرية وأنا ناظر ؟ فلابد أن يدفع لى مثله ، ثم ذهب إلى القرية فأخذ عامرا وبالغ فى ضربه ليدفع له مالا ، فاجتمع جماعة من محبى عامر ودفعوا للناظر مائة وخمسون ريالا ووعدوه بمثلها بعد أسبوع .

ثم إن عامراً لما رأى ذهاب ماله وأنه أصبح فقيراً وقد لقى ما لقى من الإهانة عول على مغادرة بلده واللحوق بالبادية لأن له بها أصدقاء ومريدين من أعراب . جهينة ، فتصدق عليه ناس من أهل القرية بدواب يحمل عليها نساءه وأبناءه ، فخرج من القرية وبلغ الخبر الناظر محمود سعد ، فركب خلفه ومعه نحو عشرين راكباً من عبيده فأدركوه عند حى من أحياء العرب فأوثقوه كتافا وسلبوا ما مع نساءه من الحلى وأهانوهم أشد الإهانة وانصرفوا بالدواب وما عليها من الأمتعة ، وكان عامر لا يفتر عن قراءة هذه الآية . (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وهذه الآية

نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو مهاجر من مكة إلى المدينة فهي أول آية أمر فيها بحرب الكفار . وكان قبلها يأمر بالصبر ، قال الله عز وجل : (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون . لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغا فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)

وما بارح عامر مكانه حتى التف حوله نحو ألف مقاتل كلهم أطوع له من بنانه على الحرب ، ثم قال لهم : إنه وزير المهدى ، وتسامع الناس بخبره فأقبلوا إليه من كل نجد وغور وبايعوه على طاعة المهدى والمحاربة ، ثم زحف بمن معه وكانوا نحواً من ستة آلاف مقاتل على مدينة سنار والتقى فى طريقه بمندوب الحكومة الذى أخذ منه الفلوس ومعه محمد أغا الصنجق فقصد الإيقاع بهما ففرا منه وأعلما مدير سنار بالأمر ، ولم يكن على علم بشىء مما حصل فورد عليه الخبر منها بإرسال اثنين من أعيان سنار بكتاب له ، فانتدب المدير محمد عبد القادر القاضى ورجل آخر وسلمهما كتاباً مملوءاً بالتهديد والوعيد له إن هو لم يسلم نفسه ، فاجتمعا به ، وهذا ما تلاه بعد عودتهما . قالا : لم نبعد عن منازل المدينة أكثر من ميل حتى قبضتنا طليعة عامر وساقونا إلى معسكره فأوقفونا بين يديه والسيوف مسلولة على رءوسنا وعامر لا يتكلم إلا بالآية الشريفة (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) وسيفه موضوع على فخذه ، فقبض عليه وقال : ما الذى جاء بكما ؟ فقلنا سمعنا بخبرك وجئنا نبايعك فقال : أحسنتما أودنوه منه وبايعناه وبعد وقت قليل ، قلنا له إن المدير أعطانا كتاباً لك وأخرجناه له فأمر بتمزيقه قبل أن يقرأه ، فتناوله بعض أصحابه ومزقه وقال فى صيحة غدا

سأدخل مدينة سنار إن شاء الله ، وفى الغد زحف إلى المدينة وخرج المدير للقائه خارج المدينة ومعه مائة جندى ، فانقض عليهم عامر ومن معه وبأيديهم السيوف المسلولة والرماح الطويلة ، فلم يثبت المدير ومن معـــه لضربهم وطعانهم ، فلم تمض ساعات حتى ولى المدير ومن معه الأدبار راكنين إلى الفرار والسيوف تقطع منهم الأعناق والبنان ولم ينج منهم غير المدير وجماعة قليلة دخلوا فى سفينة فى البحر ، ودخل عامر المدينة عنوة وبعد دخوله لها قصد دار محمود سعد فقتله .

زحف المهدى من جبل قدير إلى الأبيض

واحتـــلاله له عنـــوة

بعد الوقائع المتقدمة التى كان فيها النصر حليف المهدى ، قام المهدى من قدير قاصدا احتلال الأبيض وهى عاصمة كردفان وباحتلالها تصير دارفور فى قبضته بدون عناء لقطع المدد بينها وبين الخرطوم وباحتلاله لكردفان ودارفور يكون قد احتل بلاداً خصبة ، وأكثر واردات السودان الشرقى منها ، فلو قطعت وارداتها عن الخرطوم وقعت فى مجاعة ، توجه المهدى من قدير وأنصاره الذين معه كالجراد المنتشر حتى وصل إلى كابة وهى منهل جنوب البحر الأبيض ، وهى أقرب منهل إلى الأبيض ، فاستقبله فيها خلق كثير ومعه من المقاتلين نحو مائتا ألف أو أكثر ، منهم نحو ثلاثين ألف على جياد الخيل .

ولما وصل إلى كابه بعث رسولين بكتاب إلى محمد سيد مدير كردفان

ومن معه من قواد الجيش وجميع سكان البلد يدعوهم فيه إلى التسليم ، وبعد وصولها إلى المدير استدعى قواد الجيش وأعيان البلد وقرأ عليهما خطاب المهدى واستشارهم فى الأمر، فكان جواب القواد عدم التسليم وأمروا المدير بقتل الرسولين فلبا دعوتهما فأمر إسكندر أحد القواد بقتلهما رميا بالرصاص ففعل . ومكث المهدى أياما ينتظر عودة رسوليه إلى أن جاءه الخبر بقتلهما .

ولما بلغه الخبر أمر أخاه محمد بن عبد الله قائد جيشه أن يزحف بالجيش بعد منتصف ليلة الجمعة لست ليال بقين من شوال سنة ١٢٩٩ من الهجرة ، وأن يكون الهجوم فى الغلس ، وخطب المهدى فى الناس وحثهم على الجهاد والصبر عند النزال وملاقاة الرجال ، فزحفوا وكان جيش الحكومة عمل حوله خندقا واستعد للقاء أنصار المهدى وبيده المدافع الكبيرة والبنادق ، فبدأت الحرب ودارت رحاها وحمى وطيسها فضرب الجنود المدافع بنظام فكان يسمع لها دوى كالرعد ، واستعمل الأنصار المدافع والسيوف والرماح ولم يزالوا فى عراك شديد إلى أن اقتحم الأنصار الخنادق فتقهقر الجنود وقتل كل من الفريقين رجال وأعيان ، فمن جملة من قتل من أعيان الأنصار محمد بن عبد الله شقيق المهدى وقائد جيشه ، ويوسف شقيق الخليفة عبد الله والقاضى أحمد جبارة .

وبعد هذه الواقعه زحف المهدى بخيله ورجاله وعسكر فى عد العشر ورتب مقاتلته حول المدينة ومنع دخول الأقوات إلى المدينة .

هذا ما كان من أمر المهدى . وأما ما كان من أمر الجنود فإنهم كانوا يخرجون إلى منازل الأهالى ويأخذون ما فيها من الأقوات ، إذ لا أقوات

فى مخازن الحكومة ، وفى مستهل المحرم بدأ الناس يذبحون الماشية والمجاعة آخذة فى التفشى واشتدت حتى أكل الناس الحمير والكلاب والجلود ، ثم فقد كل شىء يقتات به ففر كثير من الجنـــود وسلموا أنفسهم للمهدى والأهالى كذلك ، واختل نظام الجيش وتمردوا على قوادهم ، وصار الخندق خاليا من المدافعين ،

وفى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ١٣٠٠ هجرية طلب محمد سعيد وهو المدير قواد الجيش وتشاوروا فى الطريقة التى يتبعوها فاتفق رأيهم على التسليم وطلب الأمان من المهدى بعد أن تيقنوا أنهم غير قادرين على البقاء بهذه الحالة وقد حصل لهم اليأس من نجدة تأتيهم من الخرطوم أو من غيرها فكتبوا للمهدى كتابا يطلبون فيه الأمان وأنهم يسلمون له البلد ، وعندما وصله الكتاب كتب لهم كتابا بالأمان .

وفى اليوم التالى الذى ضرب أجلا للتسليم خرج محمد بن سعيد ومن معه من القواد والجنود وبطريقة منظمة ، فقابلهم المهدى راكبا ، ولما دنوا منه ترجل عن جواده وجلس وأذن لمحمد سعيد وقواده بالجلوس ، ثم أمر بإحضار الطعام والشراب لهم ثم دخل المدينة وأقام بقصر المدير ، وبعد هذا الاحتلال أسند القيادة العامة على جيشه للخليفة عبدالله وجعله مستشاره الذى لايقطع أمراً دونه ، وعين أحمد بن على قاضيا بدل أخيه أحمد بن جباره ، ونصب أربعة رجال دعاهم بالأمناء وفوض إليهم النيـابة عنه فى نظر المسائل العظيمة ، ثم أخذ يبعث الرسائل للنـاس فى كل الجهات يحثهم فيه على مبايعته والجهاد معه ، وفى أثناء هذه المدة سلمت للمهدى قرية بار وهى قرية شمال

الأبيض كثيرة الجنان وبها رجال ذو مكانه عظيمة ، ولكن أهلها معروفون بكثرة النزاع فيما بينهم لأنهم من قبائل شتى ، وكل قبيلة تطلب الرياسة لنفسها .

تسليم دارفور

دار فور بلاد واسعة فى الجنوب الغربى من كردفان ، وبها قرى وبادية ، وهى بلاد خصبة تجود بقمح كثير ، وهو فيها قليل الثمن ، ويزرع فيها التمباك وله أهمية كبيرة ، ومن أكبر وأشهر مدنها الفاشر دانيال ، وفيها جبال كثيرة ، ومن أشهرها جبل مر وهو جبل يتفجر منه الماء ، ويزرع فيه القمح والفواكه بكثرة .

ولنعد إلى تسليم دارفور للمهدى ، شاع خبر المهدى فى دارفور فآمن به أكثر أهل البلد واستعدوا لنصرته . وكان وكيل مدير داره محمد خالد وملقب بزقل وهو من قرابة المهدى وداع لنصرته سراً ، ومدير دارفور سلاطين وهو نمساوى نصرانى ، وعندما شعر سلاطين بأن أهل البلاد صاروا أنصاراً للمهدى وأن الطريق انقطع عليه من جهة الحكومة فلا مؤنة ولا مدد ، فالمهدى احتل الأبيض وهو طريق الذاهب من الخرطوم إلى فود عول على أن يظهر الإسلام ويضمر الكفر ليتخلص من الموت المحدق به ، فشخص إلى داره فى الفاشر فى أواخر سنة ١٣٠٠ هجرية ، واجتمع بمحمد خالد (زقل) وسأله أن يكون رسوله إلى المهدى ، وعلى أن يكون الأمر مخفيا إلى ما بعد حرب هكس وجنوده ، وكان ذلك من سلاطين نظرة فى العاقبة ، فإن انتصرت الحكومة

فهو منها وإن انتصر المهدى فقد عمد لخلاص نفسه . وعندما قدم محمد رسالته من سلاطين وكان عند المهدى خبر بقدومه استقبله خارج المدينة ، وضربت مائة مدفع تعظيما له ، وقدمت له هدايا كثيرة ، ثم قرأ كتاب سلاطين على رءوس الأشهاد فى المسجد ، يقول فيه : إنى كنت نصرانيا من نشأتى إلى الآن ، وقد بدأ لى ترك دين النصارى واعتناق دين الإسلام ، وإننى من الآن مسلم ومؤمن بالمهدى ومصدق بدعوته ، وأنا مستعد لتسليم البلاد والدخول فى دعوة المهدى .

ولم يكن ماعمله سلاطين إلا نفاقا ومكيدة منه ، فكان فى المهدية يقول : أنا المعصية المعلقة بالشعرة ، فإذا انقطعت الشعرة وقعت المعصية وكان بعد ذلك كما قال ثم رجع محمد خالد إلى ذارفور وكتب له المهدى منشوراً بالولاية عليها من قبله وأوصاه بإكرام سلاطين ، ولما وصل محمد خالد إلى داره خرج للقائه سلاطين ومعه القواد والجنود وبعد ما دخلوا المدينة واجتمع أعيان البلد قرأ محمد خالد كتاب المهدى . فلم يخالف أحد منهم فى توليته ، ثم كتب سلاطين كتابا إلى جمعة بك مدير الفاشر يأمره بالتسليم للمهدى . وأرسل محمد خالد أيضا كتابا لمدير الفاشر دعاه فيه للتسليم والدخول فى طاعة المهدى وحذره فيه من سوء العاقبة إن هو خالف ، فأجاب بالرضى والقبول ولكنه نقض ذلك العهد واستعد للحرب ، فعمل استحكامات قوية لجيشه ، ولكنه فاته عليه أن يجعل الآبار التى يشرب منها الجيش داخل استحكامات ، فقدم محمد خالد وجيشه وهجم على الفاشر ليأخذها عنوة ، ودارت الحرب بين الفريقين بشدة ، وكان جيش الحكومة مستميت وكان الأنصار فى غاية من

قوى الحماس والشجاعة ، فهجموا على الآبار ليلا ودفنوها فأصبح جيش الحكومة بلا ماء والبلاد محاصرة من كل جهة .

ولما رأى جيش الحكومة أنه لامدد ويأتيه وأنه لا إخلاص له إلا بالتسليم سلم . وبعد احتلال الفاشر جعل محمد خالد محمد سليمان قائداً ؛ ولما تم لمحمد خالد الاستيلاء على دارفور كلها أرسل خطابا المهدى يبشرة بما أتيح له من النصر فسر المهدى بذلك سروراً عظيما حيث أن هذه البلاد واسعة الأطراف سلمت بلامعارك دامية وقتلا من كلا الطرفين كثيرة مع أن من فيها من الجنود لوعلموا بأن فيه مدداً يأتيهم لما سلموا ، ثم رد المهدى على محمد خالد بكتاب فيه . أنه يفوضه فى كل مايراه لازما وأذن له بالمبايعة له وأمره بإرسال سلامين له فكان اجتماعه به فى الدهر .

ذكر واقعة هكس

بعد احتلال الأبيض بالقرب منه

وعندما بلغ الحكومة أن المهدى احتل الأبيض عاصمة كردفان ودانت له كردفان وآمن به كثير من أهل الجزيرة ، ومن جهة الشمال كثير من أهل بربر وغيرهم ، وكثير من أهل الخرطوم وهى عاصمة البلاد وما حولها ولم تبق بقعة من السودان إلا وعندها علم بانتصاراته ومستعدة لتكون من جملة أنصاره عولت على أن تبعث إليه جيشاً على مايرام يسترجع ما آخذه ويفرق جموعه ويأتى به أسيراً أو يتركه على الجدالة قتيلا ، فبعث إليه بجيش من

الخرطوم فى شهر ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية وهو مؤلف من ستة عشر ألف جندى نظامى ، ومعهما ألف من السوارى لابسى الدروع ، ونحو ألف جندى فرسان ، وقيل كان نحواً من ثلاثين أو ستة وثلاثين ألفا ، وكان سلاحه من طراز منجتون وأربع مدافع كروب وستة مدافع متليوز بستة طلقات ، وثلاثون مدفعا من الطراز الجبلى ، وستة عشر صاروخا حربيا . أما الأقوات والذخيرة فكثيرة جداً . فالأقوات تكفى لمئونة ستة أشهر ، فالجمال معدة للحمل تزيد على ثلاثين ألفا عدا البغال ، وقائد هذا الجيش هكس وهو إنكليزى على نصرانيته .

وهنا يتعجب المتعجب والدهر أبو العجب ويعلم أنه لا مفر مما قضى الله وقدر ، كيف يكون ثلاثون ألف مسلم يقودها نصرانى ، والقائم بالحرب المهدى وحربه حرب دينية قام بها لنصرة دين الإسلام ، فأى انسجام بين هذا القائد والجيش الذى يقوده ؟ فهو رجل أجنبى لا تجمعه مع هذا الجيش أى رابطة من الروابط التى تربط الجيش ، فالروابط التى تربط الجنس الآدمى هى رابطة الدين وهى أقواها ورابطة القبيلة ورابطة اللغة ، فهم مسلمون وهو نصرانى ، وهم عرب وهو عجمى ولم تكن بلده مجاورة لبلادهم ، وهذا الأجنبى احتل قومه بلاد مصر وعاصمتها القاهرة سنة ١٨٨١ م فأذلوا رجالها وأخذوا منافع بلادها وصاروا حكامها على كره من أهلها ، فيأمرون الذى يولونه فيعمل على حسب إرادتهم سواء كان ذلك من مصلحة البلد أم لا ، وإن خالفهم عزلوه وأقصوه ، فهم لا يريدون إلا مصلحة بلادهم وقوة نفوذهم مع زعمهم الكاذب أنهم دعاة للإصلاح والسلم .

ولكن اليوم لم يكن ذلك خافيا على أحد ، فقد تبين بطريقة أوضح من شمس الظهيرة كذبهم وخداعهم لكل الشعوب ، وقد استقل بحمد الله كثير من البلاد من حكمهم ونفوذهم كمصر والسودان ، والباقى يتخلص عن قريب إن شاء الله ، فهو الذى به العون والنصر عليهم أعداء الله .

وهذا الجيش يعلم ثورة عرابى باشا الذى أقامها ضد هؤلاء الأجانب ليخرجهم من بلاده ولكنه لم يكتب له النصر وكثير منهم كان فيها ويعلمون السبب الذى حمله على القيـــام بها ، فهو ما يراه من الاستبداد من هؤلاء الأجانب وما يراه من تكبرهم وتجبرهم ، ولكنه لم يفلح لأن الملك كان ضده فأخذ أسيراً واعتقل فكان ذلك مصيبة على مصر ، لأن هذه الثورات مكنت الإنجليز فى بلاد مصر : فعملوا جيشا على القلعة وآخر فى قناة السويس ويفكر رجال هذا الجيش فى المهدى فإذا به رجل مسلم يجاهد باسم الدين الإسلامى ونصرته به ، فهو يوافقهم فى الدين والعروبة وبلاده كجزء من بلادهم ، فالنيل مار على بلاده ومنها إلى بلادهم وهو يدعوهم إلى أن يكونوا فى صفه ، فترى كل رجل منهم مستغرق فى الفكر وذاهب بجسمه بلا موافقة من قلبه وعلى قدر مايفكر لا يرى مايدعوه للحرب أهو يحارب لإعلاء دينه ؟ أهو يحارب لحماية بلده ؟ أوهو يحارب لماذا ؟ فيجيبه ضميره بأن حربك هذه ليس فيها شىء من الدواعى التى تدعوك للحرب ، وأن المهدى سيحكم عليك بالكفر ويستبيح دمك لأجل هذا القائد ، وسيجعل دليلة الآية المحكمة (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، فترى الذين فى قلوبهم مرض

يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين) ثم يعرض عن تلك الأفكار ويقول : من واجب الجندى امتثال أوامر الحكومة سواء تبين له خطأها أم صوابها ، وعند إنفاذ المقدور يضيع التدبير فيقع المرء فى المحذور وترى هذا القائد هكس لكفره يغتر بنفسه فيفتخر ويقول أنا هكس : السماء إن وقعت أرفعها بالسنج ، وهى المدى التى تكون فى أفواه البنادق مع أنه لو قعت عليه صاعقة أو أقل منها لم يستطع دفعها ، والأرض إن تحركت أثبتها بالجزم وهى نعال الجيش ، فالعمى بصيرته معتمد على حوله وقوته ، وما ذاك إلا لكفره وعدم معرفته بحقيقة نفسه .

هذا ما كان من أمر الحكومة وأما ما كان من أمر المهدى فإنه بعد مابلغه خبر هذا الجيش أمر جيشه أن يعسكر خارج مدينة الأبيض وكان يعمل للجيش استعراضا فى الأسبوع مرتين وصفة الاستعراض أن تقف كل قبيلة تحت رايتها ثم يأتى المهدى إلى كل راية فيعظمهم ويحضهم على الجهاد فى سبيل الله ، وأمر المهدى الحاج محمد أبو قرجة وهو أحد قواده أصله دنقلى استوطن أسلافه القطين ، وهو قائدهم صار بعد ذلك أميراً على السودان الشرقى وكان اجتماعه بالمهدى فى جبل قدير ، وكان من أجود أمراء المهدى وأعقلهم وعمر ابن إلياس أم برير ومعهما أربعون ألف مقاتل بالذهاب إلى قرب أم درمان . فإذا غادرتها الحملة وهى جيش الحكومة ساروا خلفها .

وبدأت الحملة سيرها من أم درمان إلى الدويم وبعد ما تجاوزت البحر ، وإذا بأنصار المهدى يهاجمونها فاضطرت أن تسير فى شكل مربع يحيط بدواب

الحملة وكانت لا تقدر على المبيت إلا داخل زريبة من الشوك وكل من يبعد عن الزريبة يقع فى يد الأنصار ولحق الجنود كثيراً من التعب وقلة النوم لأن الأنصار كانوا يهاجمونهم فى الليلة عدة مرات ، وضعفت دواب الحملة لقلة العلف ، ولما بلغت الحملة الدهر وهو على مرحلتين من الأبيض وعند المهدى خبرها قام محرضا على الجهاد ، وقال لهم عند ابتداء الحرب قولوا : الله أكبر اللهم نواصينا ونواصيهم بيدك وأنت القاتل لهم .

وفى يوم الجمعة مستهل المحرم سنة ١٣٠١ هجرية وصلت الحملة إلى شيكان وكان المهدى أرسل قبل وصولها الخليفة عبد الله ومعه جيش ليحول بينها وبين الأطى التى فى أم مصارين وأرسل قائداً آخر ومعه جيش ليحول بينها وبين الأطى التى فى البرك . وفى يوم السبت زحف المهـــدى من الأبيض وعسكر فى البر . وكان عدد مقاتلته نحو ستين ألف فارس مسلحين بالبنادق وعدد كبير مشاة وسلاحهم السيوف والرماح .

وفى صبيحة الأحد ثالث المحرم هجم حمدان أبوعنجة بالفرسان على ركن من أركان الزريبـــة وكانوا فى غاية من البسالة وقابلهم الجيش بكل قوته ودارت رحى الحرب وحمى الوطيس فلم تسـمع إلا أصوات المدافع كالرعد وقتل من كلا الفريقين عدد . فمن أعيان الأنصار عبد الله بن النور وهو من أهم القواد ومحمد فوزى كاتب المهدى وغيرهم ، ومن أعيان الحملة رجب بك وجورج بك وغيرهم وغنم الأنصار مدفعين ، وفى يوم الأحد هذا نفذت الأطى التى فى شيكان وعطش الجيش عطشا شديداً وصار الجنود يشربون الماء العكر من شدة العطش وتمرد الجنود على قوادهم وسقطت هيبة النظام

من قلوبهم حتى إن القائد إذ أمر الجندى بشىء لا يجاوبه بغير الضرب واختفى قائدهم هكس ولو رأوه لقطعوه إربا إربا لأنه هو وحكومته هم الذين عرضوهم لهذه المهالك لتضعف مصر بهلاك جيشها فى هذه الصحراء فيعيشون فى أرضها الخصبة وهواءها الطيب وفواكهها وخيراتها الكثيرة على حسب ما يشتهون .

وفى صبيحة يوم الاثنين الرابع من المحرم صلى المهدى بغلس وقسم جيشه على ثلاثة فرق وأمرهم بالهجوم على الحملة بعد ما غادرت شيلان نحو ميل سائرة نحو الأبيض وكانت سائرة بغير نظام لما يقاسيه رجالها من العطش فهجم الأنصار عليها من كل جانب وهى سائرة وبأيديهم المدافع والسيوف والرماح وكانت فى عيونهم كأنهم قطيع من الغنم سيق إلى سيوفهم ورماحهم وليكون حتفها بهذا المكان ولم يكن فى استطاعة رجال الحملة مقاومة الأنصار لما بهم من العطش فكنت لا ترى إلا رأساً طائراً بسيف ورمحا داخل فى جوف ولم تمض ساعات حتى صارت الحملة شزراً مزراً وكأمس الدابر وقتل قائدها هكس ولم ينج منها سوى مائة وعشرين جندى وضابطان أحدهما محمد حلمى والآخر محمد عزمى وأقام المهدى بالبرك ثلاثة أيام بعد هذا النصر وأيقن أن الله معينه وناصره ومن كان الله فى عونه ونصرته لن يغلب .

تفكير الحكومة بعد هذه الموقعة

وما عمله المهدى

فقدت الحكومة كل جلد عند ما بلغها ما حل بها هى وجيشها وأيقنت أن

المهدى منصور من الله ولا راد لما قضاء الله فكتبت الحكمدارية تأمرها بإخلاء الحاميتين من الدويم والكوة وفشوده وسنار لتعزيز حامية الخرطوم .

هذا ما كان من أمر الحكومة وأما ما كان من أمر المهدى فإنه كتب لكل الجهات يبشرهم بما أتيح له من النصر زيأمرهم بالانضواء تحت رايته فكان الناس فى كل جهة يخلعون طاعة الحكومة ويتزينون بزى الأنصار فيلبسون الجبة المرقعة التى هى شعار الأنصار وصارت الوفود تتدفق إلى المهدى من كل جهة ومكان لتبايعه ولتكون من أنصاره وسقطت هيبة الحكومة .

منشور المهدى الذى بعثه إلى الشيخ طاهر

وإلى الجهات الأخرى

الحمد لله الولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمـــد وآله مع التسليم وبعد فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله جزيل السلام إلى كافة الإخوان من المحبسين ومشايخ الدين لا يخفى عزيز علمكم أن لا غاية له إلا فيما يرضى الله من كال الإيمان والإتباع على السنة والكتاب وبصرف الهمة فى هذا الوجه يتولاه الله ويقوم بحظوظه فى الدارين وإذا التفت إلى حظوظه وصرف همه إلى ذلك وكله الله إلى نفسه ولم يصل له من حظوظه شىء إلا بالتعب القلبى والبدنى وأنتم أيها المؤمنون الذين يظن بكم المعاونة على تقويم السنة .

ومعلوم أن جاه الدنيا ولذاتها لايؤثر فى العاقل العارف لأن ما فى الدنيا مفارق يصير كأنه لم يكن ولذتها لا تغنى بحسرتها ، بل عين اللذة تصير عين الحسرة ، فالعاقل العارف لايسعى إلا فى رضى الله .

وعلى ذلك يا أحبابى إنى لم أقدم على تنبيه الناس وأحثهم على إقامة السنة إلا بأمر من سيد الوجود صلى الله عليه وسلم . ولم يكذب على سيد الوجود إلا من لا خلاق له عند الله .

وفضلا عن ذلك تعلمون هذا الزمن وما فيه من البدع ومالهم تحصن من ذلك إلا الفرار بالدين وطلب الهجرة بالذين فى هذا الحال وارد كتابا وسنة ووعيد من ترك الهجرة وارد كتابا وسنة ، كما لايخفى . وقد كاتبت أهل الدين على التمسك بدين الله وإقامة السنة فإن كانت قد بلغتكم تلك الأجوبة السابقة فهذا إليكم لتشمروا وإن مثلكم لابد أن يكون لمثل هذا الأمر أول قائم .

ومعلوم أن من تركه وصد عنه فعليه إثمه وإثم من صدهم ، ولايخفى أنه لا يعز على الله أن يظهر قدرته فى أضعف خلقه ويظهر الدين على كراهة أهل المعصية ، فمن أعرض عن ذلك فحسبه الله .

حوادث السودان الشرقى

السودان الشرقى عبارة عن فيافى مترامية الأطراف ممتد من شرق وشمال نهر أتبرا حتى شاطىء البحر الأحمر كسواكن وهى متاخمة للحبشة ، ومن قبائله التاكا ، ومدينتها الكبرى كسلا وهى مدينة عظيمة كثيرة المزارع

والجنان ، ومدفون فيها السيد العظيم والولى الكبير السيد الحسن بن السيد محمد عثمان المرغنى المكى والهدندو وهى قبيلة كبيرة ورجالها رجال حرب . ولهم شجاعة فى الحرب ويسكنون غرب سواكن ويمتدون منها إلى كسلا ، ومنها بنو عامر والهباب وأمارأر وغيرهم . وهذه القبائل يشبه بعضها بعضا فى الأخلاق والعادات وتتكلم بالعجمية وتعيش كما يعيش بعض الأعراب باللبن واللحم وجل ماشيتهم الإبل ويسكن بعضهم رءوس الجبال .

ترجمة الشيخ الطاهر المجذوب وعثمان دقنه

وما عمله فى شرق السودان ، وما أبداه من الشجاعة ومعرفة الحرب
وما أتيح له من النصر

فالشيخ الطاهر المجذوب هو شيخ الطريقة المجذوبية ورث السجادة ، والمراد بها المشيخة فى الدين عن عمه الشيخ محمد المجذوب الصغير تلميذ السيد أحمد بن إدريس المغربى ، وأصلها بطن من بطون قبيلة الجعليين اسمها المجاذيب نسبة إلى جدهم أحمد المجذوب ويسكنون على ضفة النيل جنوب نهر أتبرا ، وقريتهم يقال لها الدامر محل ضريح جدهم أحمد المجذوب فأما محمد المجذوب عم صاحب الترجمة فإنه ولد بهذه القرية ثم هاجر منها إلى الحجاز ، وهناك التقى بالسيد أحمد بن إدريس ولازمه مدة ثم عاد من الحجاز بعد أن نال من أستاذه ما نال وتحصل على درجة عالية فى العلوم النقلية والعقلية والتصوف ، فاستوطن سواكن وترامت شهرته إلى أطراف البلاد وصار له أتباع يعدون بالألف وكان الناس يحبونه غاية المحبة ، وعثمان دقنة هو عثمان بن أبى بكر دقنه نسبة

إلى قبيلة الدقى وهى قبيلة صغيرة تسكن يسواكن ، وكان عثمان من صغره مشهوراً بالميل إلى العبادة وملازمة أوراد الطريقة . وكان مشهورا بالكرم والشفقة وهو من تلاميذ الشيخ الطاهر المجذوب وكان طائعا ومحبا لشيخه .

ولما وصل منشور المهدى إلى الشيخ الطاهر وفيه أنه يستحثه بمناوءة الحكومة والقيام بالدعوة له فى شرق السودان وأنه أذن له بمبايعة الناس له نيابة عنه وأنه أمير من قبله على تلك البلاد وبعث إليه الشيخ الطاهر بوفد من أتباعه برأسه عثمان دقنه ومن معه كتاب الشيخ الطاهر يقول : إن عثمان دقنه من خيرة مريديه وأصدق أتباعه من رجال العزم والحزم ، وإن إمارة السودان خليق بها أكثر منى وإننى أستنكف أن أكون تابعاً لأفضل مريدى عثمان وسأكون محل مشورته ومديراً للأمور معه وسآمر أتباعى كلهم بالقيام معه لنصرته ومؤازرته ، وأن المانع لى من قبول هذا الأمر لنفسى هو الطعن فى السن وعدم القدرة على التنقل إذ هو من ضروريات هذا المنصب وتلقانى أول من يذعن بالطاعة لعثمان .

ولما قدم عثمان على المهدى وجده قد احتل الأبيض عنوة فتلقاه بالحفاوة والإكرام ، ولما أطلع المهدى على خطاب الشيخ الطاهر أعجب به وتبين له أنه مصيب فى تولية عثمان دقنه وحالا سير المهدى عثمان دقنه من الأبيض فى شهر ذى القعـــدة سنة ١٣٠٠ هجرية وكتب له منشوراً إلى جميع أهالى السودان يعلمهم بأمر دعوته ويأمرهم بطاعته . وفحوى المنشور كالآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الولى الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد : فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن

عبد الله جزيل السلام إلى كافة الإخوان ومشايخ الدين ، لايخفى عليكم أيها الإخوان والأحباب أنكم تعلمون ما أصاب الدين من الضعف وما انتابه من تعطيل الحدود وإنى قد وجهت إليكم الشيخ عثمان بن أبى بكر دقنه السواكنى نائباً عنى فيكم فبايعوه وآزوروه وانصروه ، وإنى أزف إليكم بشرى ما أتاح الله لى من النصر والاستيلاء على كردفان ، ولكم البشرى أيضا بأن الله سينصركم ويثبت أقدامكم ويورثكم السودان الشرقى ويهلك من فيه من جنود الحكومة ، كقوله تعالى : (ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين) .

هذا ما كان من أمر المهدى وعثمان دقنه وأما ما كان من أمر الحكومة فإنها كانت لها جواسيس فى كردفان وبلغوا الحكمدارية فى الخرطوم أمر عثمان فعولت على القبض عليه قبل وصوله إلى سواكن ولكنها لم تفلح فلم تظفر به ، ولما وصل عثمان إلى هندوب وهى قريبة من سواكن بعث رسولا إلى الشيخ الطاهر يخبره بقدومه وكان الشيخ فى سواكن .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة سنة ١٣٠٠ هجرية غادر الشيخ الطاهر سواكن إلى هندوب ومعه كل أسرته لمقابلة عثمان ، ولما اجتمعا بهندوب وأطلع الشيخ الطاهر على ما كتبه المهدى قام وسط الجموع ، وبايع عثمان دقنه بيعة المهدى ونزع ملابسه ولبس شعار المهدية ، ثم تتابع الناس على بيعة عثمان اقتداء بالشيخ الطاهر ثم أخذت القبائل فى تلك الجهات خبر مبايعة الشيخ الطاهر فجاءوا من كل صوب للمبايعة ، وترامت الأخبار إلى كسلا ومصوع ودخل كل القبائل فى طاعته ، ثم غادر عثمان ومن التف حوله من

الأنصار هندوب واستعدوا للحرب ضد الحكومة ومن هندوب توجهوا إلى سواكن .

ذكر واقعة سنكات

وهى أول واقعة فى السودان

ولما عسكر عثمان فى سنكات أصدرت الحكومة أوامرها إلى محافظ سواكن بالقبض عليه ، وتفريق جموعه فانتدب توفيق مأمور توكر وستين جندياً وأرسلهم للقبض عليه ، وما كاد توفيق — الذى خانه التوفيق — يصل إلى سنكات حتى أحاط به عثمان ومن معه من كل جانب فتحصن هو وجنوده داخل زريبة من الشوك وأحاط بهم الأنصار إحاطة السوار بالمعصم ودارت رحى الحرب ، وكان جيش الحكومة على استعداد كامل ومستميت فضرب مدافعه بثبات ، وكان الأنصار فى غاية الشجاعة فلم يصدهم ضرب المدافع فدخلوا على توفيق ومن معه الزريبة واختلطوا بهم اختلاط اللبن بالماء فاختل نظامهم واستعمل الأنصار فيهم السيوف القاطعة والرماح الطويلة فأبادوهم عن آخرهم بعد ما قتلوا من الأنصار عدداً كثيرا .

حملة محمود طاهر

لما قررت الحكومة ترك السودان وإخلاءه عهدت إلى محمود طاهر قيادة خمسة آلاف من الجنود لإنقاذ توكر وسنكات ، فقامت الحملة من

سواكن إلى ترنكيتات بحراً ثم سارت براً من ترنكيتات قاصدة توكر وكان عثمان على علم بها ولم يكن لها بها به علم فحشد لها جيشاً جراراً يزيد عدده على خمسين ألف مقاتل كلهم فى غاية الشجاعة وكمن بهم فى منتصف الطريق بين توكر وترنكيتات ولم تقطع الحملة مسافة كثيرة حتى خرج عليها الكمين من كل صوب فداهمها على غرة فدارت رحى الحرب وحمى الوطيس فاستعملت الحملة المدافع فكان لها صوت هائل واستعمل الأنصار السيوف والرماح وهى جل سلاحهم ، ولم يزالوا فى عراك شديد والأنصار فى تقوم والحملة فى تأخر إلى أن اختلطوا بهم وتعذر ضرب المدافع لعدم النظام فعولت على الفرار وولت الأدبار ، واختلط الأنصار بها اختلاط الماء باللبن وكانت لهم جرأة وشجاعة وبأيديهم سيوف قاطعة وهى بأيدى رجال على الوغى صابرة ، فلم تر إلا رأساً طائراً وجباناً حائراً إلى أن مزقوا الحملة كل ممزق وتركوها أشلاء للعقبان والرخم ، ولم ينج من الحملة غير القائد وقليل من الجنود سلموا من الموت فى ذلك الحين ، مع أن الحملة قتلت عدداً كثيراً من الأنصار وقاومت بكل ما فى وسعها ، ولكن الله لم يكتب لها النصر (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

حملة بيكر

ولما بلغ الحكومة هزيمة حملة محمود طاهر والفتك بجيشه انتدبت الحكومة بيكر القومندان ومعه أربعة آلاف جندى ، وفى آخر المحرم سنة ١٣٠٠ هجرية استعرض الخديوى توفيق باشا جنود بيكر وأبدى سروره من حسن

نظامهم ، ثم غادر بيكر القاهرة قاصداً سواكن وبعد ما وصل سواكن أخذ في الأهبة للزحف على توكر لإنقاذها وإنقاذ سنكات .

وفي ربيع الثاني سنة ١٣٠٠ أبحر بيكر بحملة من سواكن إلى ترنكيتات ثم غادرها بحملته في طريق وعرة المسالك لتكاثف الغابات ، فكانت الحملة سائرة على هيئة بولجية تتقدمها المدافع وبجانبها الفرسان .

هذا ما كان من أمر الحملة وأما ما كان من أمر عثمان ومن معه فإنهم كانوا على علم كامل بالحملة فكمنوا لها في الطريق ولم يكن لها بهم علم إلا أنها على حذر شديد منهم ، وبينما الحملة سائرة لم تشعر إلا وهاجم عثمان وأنصاره الشجعان مقدمتها واختلطوا بهم ورأوا أن السيف أصدق أنباء من المدفع في حالة القرب ، وحاول قائد الحملة تشكيل قلعة من المشاة ولكن إسراع عثمان ورجاله في الهجوم وخفة حركاتهم وشدة أقدامهم حال دون ذلك ، فقامت رحى الحرب بين الفريقين على قدم وساق وضربت المدافع ذات الطلقات

ولما رأت الحملة ثبات الأنصار وشجاعتهم ركنت إلى الفرار فعملت فيها السيوف والرماح وصار رجالها يرمون سلاحهم مولين الأدبار ، ولم تزل السيوف والرماح تعمل فيهم إلى أن قتل منهم ثلاثة آلاف ، وقتل من الأنصار عدد كثير ، ونجا القائد ومعه عدد من الحملة بعد ما شاهدوا الموت بالعيان فوصلوا إلى ترنكيتات وغنم عثمان كل الأسلحة والمدافع التي كان فيها عدد من الطراز الكبير .

على أن هذه الهزيمة جاءت تلو التي قبلها وبالأسباب عينها ، فكانت ضغثا

على إبالة لما فقدته الحكومة من الرجال والسلاح وعدم توفيق قوادها لما فيه الفوز والنجاح.

واقعة الجنرال جراهم فى التيب

ولما فشلت حملة بيكر وهزمت شر هزيمة وشتت شملها وقتل أكثرها، قررت الحكومة الإنجليزية إرسال قوة عسكرية لقهر عثمان وتشتيت جيشه فى أقرب وقت وفتح الطريق بين بربر وسواكن وعهدت بقيادة الجنود إلى جراهم، فوصلت هذه القوة إلى سواكن فى أواخر شهر ربيع الثانى سنة ١٣٠٠ هجرية: وبعد أيام أبحرت إلى ترنكيتات وأخذ جراهم بالحزم والحذر لئلا يحل به هو ومن معه ماحل بالحملتين السابقتين، فسار بحملته وعدد مشاتها ثلاثة آلاف: وفرسانها ثمانمائة ونحو من أربعمائة من المهندسين والطوبجية وجعل الفرسان فى جانبى المربع، ثم سار من ترنكيتات قبل الظهر ورافق بيكر جراهم.

هذا ما كان من جراهم وأما ما كان من عثمان فإنه كان على علم كامل بالحملة فتحصن فى التيب وحفر خندقا أحاطه بالمتاريس ووضع عليه مدافع الكروب التى غنمها فى الواقعتين السابقتين ولكنهم كانوا بلا مؤخرة تحفظهم من الخلف فشجع ذلك جراهم فهاجمهم فقذفوهم بالمقذوفات المواصلة التى لم تجاوبها قنابل جراهم وتشجعت الحملة فى التقدم حتى صارت على بعد ميل من حصون الأنصار التى كانت نيران مدافعهم وقنابلهم شديدة عليها وأخذت نيران

مدافع الحملة وقنابلها تجاوب مقذوفات الأنصار واشتعلت النار بين الجانبين وامتلأ الجو من أصوات المدافع وثبت الشجاع وخاف الجبان . وكان أحد جوانب الحملة عرضة لمقذوفات الأنصار أكثر من غيره فأراد القائد إبدال شكل المربع بطريقة تصير الأضرار خفيفة ، فاغتنم الأنصار هذه الفرصة وزحفوا بخفة غريبة إلى أن اختلطو بالحملة اختلاط الماء باللبن وصار القتال بالسيوف والرماح وبيد الأنصار سيوف قواطع تلمع ورماح طوال تحير الجبان ؛ فما يدرى أين يقع .

ولما رأى جراهم وحملته ما حل بهم من سيوف الأنصار ورماحهم ولوا الأدبار راجعين بعد ماقتل من كلا الفريقين عدد وجرح بيكر وانسحب عثمان راجعاً بعد إدبارهم ، يقصد بذلك أن يغتر جراهم فيتبعه فإذا توغل فى الغابات أحاط به وفعل به مافعل بالحملتين قبله . ولكن جراهم أدرك ذلك فكر راجعا راضياً من الغنيمة بالإياب .

محاصرة عثمان دقنة بسواكن

قلنا إن عثمان كان يقصد بالتقهقر التغرير لتتبعه الحملة ، فلما أدرك قائدها الحيلة وقفت راجعة إلى سواكن بسرعة ندم عثمان لفوات الفرصة حيث كان فى إمكانه مهاجمتها فى طريق توكر ، ثم زحف بجيوشه على سواكن وتحصن فى مكان يدعى طمية وصار ترسل بعضا من جيشه يهاجمون المدينه حتى يضطر الجيش الذى بها إلى الخروج إليهم واشتدت وطأتهم على المدينة .

ولما كثرت غارات الأنصار على سواكن حمل جنود الإنجليز على الأنصار وخرجوا من سواكن وتقهقر المغيرون أمامهم حتى بلغوا طمية وقصد الأنصار أن يبعدوهم ولو قليلا عن سواكن .

ولما تراءى الجمعان لزم الجنود خطة الدفاع وتحصنوا داخل زريبة من الشوك ، وعندما أقبل الليل بظلامه قام الأنصار وانقضوا على العدو ودارت الحرب رحاها واشتد ضرامها وحمى وطيسها ولم تزل قائمة على ساقها ، فالمدافع تضرب بمقذوفاتها إلى مطلع الفجر ، وكان الأنصار فى ثبات وتقدم لأنهم رجال فى الوغى شجعان عند اللقاء إلى أن اختلطوا بالجنود فولوا الأدبار والسيوف تعمل فيهم ، فلم تر إلا رأسا بالحسام طائرا وجبانا حائرا ولم تزل مدافع الأنصار وسيوفهم ورماحهم تعمل إلى أن قتلوا من الجنود الإنجليزية فى هذه المعركة نحو أربعة آلاف ولم ينج منهم إلا القليل رضوا من الغنيمة بالإياب وندموا على ملاقات الأنصار وقالوا لاقينا الأنصار فلاقينا رجالا وأى رجال لاقينا ، رجال لا يشق لهم غبـــار ولا يصطلى لهم بنار .

وقال كتبة الجرائد الإنجليزية فى وصف هذه الواقعة وكانوا شاهدوها أن الأنصار أشجع رجال فى الدنيا وأشد الناس خبرة بفنون الحرب .

محاولة جراهم الوصول إلى بربر

وردت الأخبار إلى القاهرة ولندن وهى عاصمة انجلترا بقطع الأسلاك التلغرافية بين الخرطوم والقاهرة ، فقررت الحكومة إرسال حملة جراهم

لفتح الطريق بين بربر وسواكن وأمرت جراهم بالحملة على عثمان وهزيمته وتفريق جموعه واختراق الصحراء للوصول إلى بربر ، وكان ذلك منها أماني والأماني والأحلام تضليل فهي لم تلاق ما لاقاه جراهم وجنوده ولم تشاهد ماشاهدوه من عثمان وأنصاره ، وكان لعثمان جواسيس في سواكن يبلغونه الأخبار .

ولما سمع هذا الخبر سر به غاية السرور وعزم على عدم مقاومة الحملة بالقرب من سواكن وإخلاء الطريق لها وعدم مناوشتها حتى تتوغل في الصحراء وهناك يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم فيتمكن من إبادتها .

ولما خرج جراهم من سواكن قاصداً بربر على حسب أوامر الحكومة كان هو ومن معه على حذر شديد وقلوبهم ممتلأة خوفا من عثمان أنصاره لأنهم رأوا سيوفهم ورماحهم وثباتهم وشجاعتهم فقطع جراهم وجيشه مسيرة يوم من سواكن ، ثم تحقق عنده وعند جيشه أنهم إن تابعوا السير كانت عاقبتهم له تختلف عن عاقبة من قبلهم ، فشاور قواده واتفقوا كلهم على العودة إلى سواكن قبل أن تطرأ ظروف تجعل السلامة في خبر كان فعادوا ، ولما سمع عثمان بعودة جراهم أسرع إليه ليهاجمه قبل أن يدخل سواكن ، ولكن جراهم أسرع فدخلها قبله .

ذكر منشور المهدى لعثمان دقنة والأنصار

الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد ، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى حبيبه وصفيه

وعونه ونائبه فى إقامة دين الله ذى الرأفة بالضعفاء عباد الله المسلمين المنيبين إلى الله والشدة على المتكبرين أعداء الله عثمان بن أبى بكر دقنة وقاه الله كل محنة وجعله الله من أعلا أهل المكرمة .

حبيبى إن الدين قد انهدم بسبب الحظوظ النفسية السفلية التى تزول عن قريب وتحجب عن دوام النصيب . فشمر أنت وإخوانك التابعون لنا عن ساعد الجد على ترك المشتهيات النفسية ومقاسات الشدائد التى تقرب إلى رب البرية فيدوم خيرها فى الدار الآخروية والمعلوم أن الخير الذى لا يدوم خير منه الشر الذى لا يدوم ، لأن صاحب الخير الذى زال أشد الناس حسرة وتوجعا ، وصاحب الشر الذى زال أشد الناس فرحا وسروراً .

فلما علم العاقل المؤمن بما عند الله من عاقبة خير الدنيا زهدها لشؤمها عند الفوات وشدة حسرتها عند الممات مع أنها تشغل عما فى الأخرة وتصرف عن القيام لله خالصا والوقوف بالله صادقا ، فأنيبوا لما عند الله واكتفوا بالله ولا تتنعموا فى دار البلايا ودار الظالمين الأشقياء فتصرفوا بذلك عما أعد للمتقين ، واقتدو بالنبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى الإعراض عن الدنيا ومتاعها ، واصبروا على الجوع والخضوع لما عند الله بالقلب القنوع .

واعلموا أنه لو كان فى الدنيا خير لصبه الله على عبده المؤمن ولأعطاه كل ما عند الكفار ، ولكن ليست هذه الدار محل العطاء ولا دار الجزاء ولا زمن السراء ، فاعرفوا ما خلقتم له من الاكتساب منها إلى محل الاجتماع بالأحياء ودوام اللقاء .

فهيا يا أحبابى ولا تتعطلوا بهذه الدار مع من تعطل بها لغروره بمحض البلاء ، قال الله عز وجل : (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لتبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا) .

فخير الدنيا مؤد إلى الوقوع فى الهوى الخلاء ، وانظروا ثواب ما فيها من البلواء ، إذ قال الله تعالى : (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم وأولئك هم المهتدون) .

فانظروا العطاء الذى فيه البلاء وهو الصلاة من الله مع الرحمة والهداية إذا كان العبد راضياً أو صابرا على مراد الله ومعتقداً أولية الله له وشفقته عليه فيحسن به الظن زيادة عما يحسنه فى أبيه الشفيق عليـــه الذى يعلم خبرته وقدرته وغناه ، فيعلم يقيناً أن أباه الموصوف بتلك الصفات لولا محض الشفقة عليه وإرادة الخير له لا يقصده ولا يسقيه الدواء المر ، فكذلك المؤمن بالله وبأولية الله يعلم أن عند الله خيراً لا تزنه السموات والأرض وما فيهما ويعلم أنه قادر على إعطائه كل خير وبيده خزائن الخيرات .

ولكن المعلوم أن المريض إذا أعطاه أبواه لذيذ الأطعمة عجلت بموته وإن أباح له الملاعب والشهوات عن الحبس للتعليم كبر سفيها جاهلا .

وكذلك حكمة الله فى صرف النعم عن عبده وتنفيره عنها فى الدنيا من هذا القبيل وأعلا علما فى ضرره بالحاضر الذى يعقب حسرة طويلة ، ولذلك فعل بأصفيائه ما فعل ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أشدكم

بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل) والأخبـــار فى هذا المعنى كثيرة من الكتاب والسنة .

فانظروا ما قاله العبد من البلاء فى قوله تعـالى : (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك المهتدون) فقوله : إنا لله وإنا إليه راجعون هو حسن الظن بالله معرفة به لكثرة أياديه ونعمه عليه واشتياقا إليه دون الشهوات لتسكون له قبل لقائه .

فالمعلوم أن من انتسب إلى ملك وأخلص فى انتسابه له ، وعلم الملك أن له حقيقة ، عمل له كل إحسان ورفعه بكل درجة ، وإذا علم الملك أيضاً من قلب ذلك الشخص أنه إلى أبده مستعد من قلبه أنه لايرجع إلى غيره أعد له مايقدر عليه من حسن المأوى .

فكذلك العبد المؤمن لما يعلم أيادى الله عليه وأوليته له مع معرفته أنه قادر وغنى وخبير يفرح بما يقضيه عليه قائلا : إنا لله ، يعنى نحن ملك الله وهو الأولى بنا منا ولما يعلم أنه لامرجع له إلا إليه مع معرفة أياديه وعظمته وما أعده فى الآخرة يشتاق إليه فقط ويصرف نظره عما مايعطله قائلا : وإنا إليه راجعون ، فيثيبه الله بصلوات عليه فيصلى عليه كما صلى على أحبابه من الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين ويرحمه الرحمـــة الخاصة التى تليق بعظمته ، وبما ظنه فى الله قد سلك طريق الله والجنة فهداه الله إلى ذلك ، لأن الجزاء من جنس العمل ومن جاهد يهديه الله كما قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) .

فلا تطمعوا أحبابى فى غير ربكم ولا تتشوقوا لغير دار الدوام مما يزول ويعقب حسرة تطول فتنعموا ببلاء الدنيا لحسن الظن بالله واعرضوا عن متاع الدنيا الذى تعقب الشقاء وحثوا إخواننا الذين معكم بالحال والمقال وكونوا كما قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ، ولاتقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون) ووطنوا أنفسكم على الرضا بقوله تعالى : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) لتنالوا بالرضا والصبر على مراد الله تحسينا لظنكم بالله الصلوات والرحمة والهداية .

وإنه ياحبيبى بعد وصيتى هذه فليكن اعتمادكم على الله تعالى فى كل أموركم تصديقاً وامتثالا لقوله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فالتوكل على الله كنز المؤمن .

وحيث أن مطمح العبد نظره ربه وصل إليه وجازاه ومن اعتمد على غير الله خذله فى محل حاجته كما لايخفى فلا تعتمدوا على الكثرة بل اجتهدوا فى الصفوة التى هى الاعتماد على الله وحده وزهد الدنيا والتشوق إلى ما عند الله فى دار البقاء فالذى عندكم ينفد وما عند الله باق فإن الكثرة بغير الله خذلان فكم من فئـــة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز فاعتمدوا على الله واكتفوا به واشتاقوا إلى الذى عنده والسلام .

تولية غردون حاكما عاما على الخرطوم

وخطابه للمهدى قبل أن يصل إليها

عرضت الحكومة البريطانية على الخديو تعيين غردون حاكما عاما على السودان ومنحه سلطة مطلقة وكان هذا العرض فى صفر سنة ١٣٠١ هجرية فقبل الخديوى هـــذا العرض وفى يوم ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٠١ هجرية كان وصول غردون إلى القاهرة فى يوم ٢٨ من ربيـع الأول سنة ١٣٠١ هجرية أعد قطار خصوصى فى محطة بولاق ليحمل غردون ومن معه إلى أسيوط وازدحمت المحطة بالمدعوين ولم يكن مع غردون جيش فاتصل به عبد القادر حلمى وقال له إنى أتوقع لك فشلا ما دمت قاصداً إلى السودان بلا جنود وفى الساعة العاشرة سافر القطار إلى أسيوط ووصلها فى الغد ثم ركب باخرة فى النيل إلى أسوان ، ثم غادرها إلى الشلال ثم ركب هو ومن معه باخرة إلى كورسكو وبعد يومين وصلوها وقبل أن يغادرها كتب خطابا إلى المهدى وبعث معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم لمشايخ الاعراب وفى خطابه يقول للمهدى إنى أعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله وملكا على كل أقاليمه التى هى كردفان ودارفور وإنى لما بلغنى ما أصاب أهـــالى السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ، ولذا عينتنى ملكة بريطانيا والخديوى ملك مصر على السودان لأكون فيه حاكما عاماً وإنى من صميم قلبى أرغب فى توثيق عرى الصداقة الودية بينى وبين سلطتكم وقد داخلنى حزن شديد لمـا علمت بقطع طرق السودان الشرقى الذى جاءت

حائلة بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها كل عام لأداة فريضة الحج وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم فهيا بنا لفتح الطريق وإلقاء السلاح وتوطيد دعائم السلام .

وأرسل برقية إلى الحكمدارية بالخرطوم يأمرها باستقبال سفير المهدى بالحفاوة والتكريم إن جاء قبله ثم غادر كروسكو وبعد أيام وصل إلى أبو حمد هو ومن معه وهى أول حدود مقاطعة بربر من جهة الشمال وأول حدود دنقله من الجنوب وسكانها الرباطب والمناصير وهما من قبيلة الجعليين وهى بلاد حجرية قاحلة وأغلب أقوات أهلها ترد إليهم من الشمال والجنوب واستقبل غردون فى أبو حمد حسن مدير بربر ومعه أعيان المديرية فألقى عليهم غردون خطبة قال فيها : إنه تجاوز للأهالى عن المتأخرات من الضريبة لغاية سنة ١٨٨٢ ميلادية كما أنه تجاوز عن ضريبة ثلاث سنوات فى المستقبل وأنه ألغى الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق فقال له أحد مشايخ الأعراب إنك أعفيتنا من هذه الضرائب ولكن لا نأمن أن يخلفك حاكم غيرك فيعود إلى جبايتها ما دامت أسماؤنا فى الدفاتر فقال له صدقت وسنأمر بحرق الدفاتر وفى الغد سافر إلى بربر وبعد أيام وصلها وتقابل مع رجال الحكومة وأعيان البلد وتشاور معهم فى أمر المهدى فقالوا إن المهدى انتشرت شوكته وخضع له السودان الغربى كلة وله أتباع وأنصار فى كل أنحاء السودان ، وعنده أسلحة كثيرة غنمها من الحكومة . وحيث أنك لم تأت بجيش جرار فمأموريتك لاشك فاشلة . وبعد ثلاثة أيام غادر بربر قاصدا الخرطوم .

وصول غردون إلى الخرطوم

عندما وصل غردون فى الباخرة هو ومن معه إلى المقرن وهو اجتماع النيلين الأبيض والأسود قابلته الخاصة العسكرية ثم تفقد الحصون فسر من قوتها وأثنى على العساكر وشجعهم ثم توجه إلى الخرطوم وهناك وجد الجنود صفوفا والأهلين محتشدين وكانوا يظنون أن معه جيشا على ما يرام يستطيع أن يدافع به المهدى عن الخرطوم ولكن ياخيبة الأمل بينما الناس ينظرون خروج الجيش من الباخرة وإذا بها يخرج منها غردون وإبراهيم فوزى والكولونيل ستيوارت وجميع من فى الباخرة نحو عشرون فاندهش الناس وقالوا أمن هؤلاء الثلاثة يخاف المهدى ويترك التقدم إلى الخرطوم هذا شيء بعيد .

ولما وصل غردون إلى قصر الحكمدارية دفع فرمان توليته إلى الشيخ حسن المجدى رئيس المدرسة الأميرية فصعد على منبر الخطابة وقرأ الفرمان بصوت مرتفع والناس منصتون لاستماعه ، وهو يا أهالى السودان عموماً إن الجانب العالى الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إناثاً وذكوراً .

وكذلك الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا وإنكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم ، حيث نشبت الحرب بينكم وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام وزيارة قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقد ساء هذا الحال كلا من المملكة

والخديوى فانتدبت من قبل حكومة الملكة لأكون والياً على السودان وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما وفوض إلى الحكم المطلق وقد خابرت السيد محمد أحمد المهدى بفحوى مأموريتى واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برئاسته على شرط أن لا يمد يده لغيره . هذا وقد ألقيت الأوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٢ ميلادية . وقد تجاوزت عن ضرائب ثلاث سنوات مستقبلا وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات وأمرت بإطلاق جميع المسجونين وعزمت أن لا يكون أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين . حيث أنى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه ولى الأمل بأن العلاقة ستصبح بينى وبين سلطان الغرب وثيقة العرى ومنى عليكم السلام .

وكان أهل الخرطوم يسمعون هذه الخطبة ودموعهم تنهمر من أعينهم حيث كانوا موقنين بأن هـــذه سياسة خرقاء . وأن المهدى سوف يتقدم بجيوشه فيحتل البلد عن قريب مادام غردون لم يأت بجيش .

ثم دخل عليه بعض العلماء . وقالوا له إن المهدى لا يلتفت إلى شىء مما تقول ولا يرده عن احتلال الخرطوم غير جيش جرار وأن من حولنا وكثير من أهل القطر متحفزون للقيام معه ولنصرته وسيأتيك منه الرد فتعلم أن الحقيقة هى ما أخبرناك به .

رد المهدى على غردون بخطابين

الأول

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الوالى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد .

فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى عزيز بريطانيا والخديوية غردون وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه وأنك تزعم إرادة إصلاح المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة بيننا وبينكم وحال المسيحيين والمسلمين وأن تجعلنى سلطانا على كردفان فأقول والأمر لله إنى دعوت العباد إلى صلاحهم وما يقربهم من ربهم وأن يفرغوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملون ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبنا إلى حكمدار الخرطوم وأنابنا بدعوته إلى الحق وبأنى لست أريد ملكا ولا جاها ولا مالا وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وتعزيز السلاطين وتبذهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الجاه والمال والبنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر القرون الذين لم يغن عنهم من ذلك شيئا وندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله لدلالتهم على الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضى الله ويكون له نصيب فى الآخرة .

وقد قال المسيح عليه الصلاة والسلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر داراً تلكم الدنيا فلاتتخذوها قراراً ، ومن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مغرور فكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن . فأنب إلى الله الباقى وأخضع لجلاله وأطلب عز الآخرة . ولا تظن أن هذه الدنيا دار حتى تسعى لمالها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريق النبى صلى الله عليه وسلم يفتح عليه زيارة قبره ولم يكن النبى صلى الله عليه وسلم ممن يرغب زيارة الكلاب ، كما ورد أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب .

وكيف يرغب فيمن عبد غير الله ونسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية . فإن كنت شفيقا على المسلمين فبالأولى أشفق على نفسك وخلصها من سخط خالقها وقومها على اتباع الحق باتباع سيد الخلق سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيى ما اندرس من ملل الأنبياء والمرسلين وإنى مصدقا لما بين يديه من الكتب .

فجميع الأنبياء عليهم السلام لو حضروه لما سلكوا غير ملته ولكنهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته ومن بعدهم لا يقبل منه دين غير دينه فطهر نفسه أولا بالدخول فى ملته ثم أشفق على أمته بسلوك ملته فعند هذا تكون الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق كيف وقد قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين) إلى أن قال (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة

ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) وإننا قد امتثلنا أمر الله فلا نتخذ ولياً إلا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعد الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا حيث أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك ولياً وتكون من إخواننا وتكون المدة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل أمر الله بعد هذه الآيات فاستحق الوعد والبشارة فى قوله تعالى (ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون) .

فبعد هذا تتصل الصحبة والمودة فيما بيننا وبينك وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل وحزب الخير الأبدى إلا حيث علمت أن حزب الله الذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون من كلام الله فاعلم أن حزب الله واصل إليك ومزيل لك عما شاركت به خالقك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأما المسلمون والمسيحيون الذين دعوت إلى إملاقهم إليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفى دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله فلا أبعدهم من جنتهم إلى محبتهم فإن الله قد أيدنى رحمة للعباد لأنقذهم من الهلاك الذى هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم أنى خليفة رسول الله صلى الله عليه

وسلم فلا حاجة لى بالسلطنة وبملك كردفان ولا غيرها ولا فى مال الدنيا ولا زخرفها وإنما أنا عبد الله دال على الله وإلى ما عنده فمن كان سعيداً أجابنى واتبعنى ومن كان شقياً أعرض عن دلالتى فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذبه عذاب الأبد وقد أيدنى الله فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك .

فافهم وسلم تسلم وأما الهـــدية التى أرسلت إلينا فعلى حسب نية الخير جزاك الله خيراً وهداك إلى الصواب واعلم أنه كما أكتب لك أولا ترغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فهاهى مرسولة إليك مع ما نرغبه من اللبس لأنفسنا وأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقى الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحوارييه وهو القائل كنبت لكم الدنيا فلا تنعشوها بعدى فتعلم بذلك أن من خالفه من الأحبار والرهبان وجميع من يدعى أتباعه ليسوا محقين وإنما غرتهم الحياة الفانيه والأمتعة الزائلة إلى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما محضا فتكون حسرة وندما فراقها لما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعراضنا عنه طلبا لما عند الله ونقول فى ذلك كما قال الله من قول سليمان لبلقيس وقومها (أتمدوننى بمال فما أتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك إذا أتيتنا نريك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ونزيل به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم

ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحا للمسلمين ولينا كما فعلنا بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارا سابقا فإنه لما أتانا ورأى الحق فرح بنا غاية الفرح وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن بالله واختار الآخرة ووثق بالله ولبناه دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك سلاطين بالتسليم فأكرمناه وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير كثير وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وبأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان عليك إثمك وإثم جميع من اتبعك والسلام . جماد أول سنة ١٣٠١ هجرية الخطاب الثانى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الولى الكريم الصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى غردون بإطلاعكم على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لايبالون بما فات من المشتهيات طلبا لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقية وحزام وسبحة فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده فلا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتى منك واصل إليك مع رسل من عندنا لما طلبت والسلام فقدم على غردون رسولان مع رسوله يحملان الكتب والهدية وهى الجبة وما معهما وللكل من الدمور وهى من أردأ ما يلبس ولما وصل الرسولان إلى الخرطوم شهرا سيفيهما فأمرهما ضابط باب الحصن بإغمادهما فلم يطيعاه وأمر غردون بالمحافظة عليهما إلى أن يصلا عنده ولما دخلا على غردون قالا له السلام على من اتبع الهدى وسلماه الكتب والهدية ولما نظر الهدية غضب

وضربها برجله ثم اطلع على الكتب ورد للمهدى خطابا مع رسوليه يقول فيه للمهدى إننى أدعوك إلى السلم وأنت تدعونى إلى الحرب وأدعو إلى حقن الدماء وأنت لا تميل إلى سفكها فأقول لك لابد من قهرك وكبح جماح طغيانك ومهما يكن عندك من الجموع فلابد أن ترضخ صاغرا أو تهلك حيال قوتى الحكومة الخديوية والإنجليزية .

ذكر زحف المهدى من الأبيض إلى الدهر

ومنه إلى الخرطوم

لما تحقق المهدى أن دعوته قد انتشرت فى أكثر أنحاء السودان وأن نفوذ الحكومة قد تقلص ولم يبق فى السودان غير الخرطوم وسنار وكسلا وكلها محاصرة بجنوده جمع إليه أهل فشودة فى الزحف على الخرطوم وهو الرأى عنده ؛ فكلهم وافقوه .

وفى أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ هجرية خطب فى الناس بما عزم عليه وغادر الأبيض إلى الدهر وهو على مرحلتين شرق ، ثم نزل بالدهر وأنشأ منازل لسكناه وتابع الناس المسير خلفه ، فصار مابين الأبيض والدهر كمدينة آهلة بالسكان لكثرة من يسير فى الطريق بينهما ، واستخلف المهدى على الأبيض عمه محمود ، وعسكر المهدى فى الدهر ووفد عليـــــه كثير من أهالى الجزيرة لتقديم الطاعة له فكان يقابلهم بالإكرام ويحثهم على العودة إلى بلادهم وعلى الجهاد .

وفى رمضان سنة ١٣٠١ أعلن المهدى أنه سيعتكف العشرة الأواخر من رمضان ، وفى يوم العيد خرج من معتكفه إلى المصلى فصلى بالناس

صلاة العيد ثم خطب فحث الناس على الجهـــاد وأخبرهم بأنه سيتقدم إلى الخرطوم وأنه سيفتحها بعون الله إن شاء الله ، ومن ذلك اليوم زحفت جيوشه كسيل العرم نحو الخرطوم وسار هو حتى قطع الفلاة التى بين كردفان والنيل الأبيض ، ثم عسكر فى قرية شاة وهى على مسيرة ثمان مراحل من الخرطوم ، وكانت جيوشه زهاء ستمائة ألف ما بين راكب وماش وكلهم رجال حرب .

وفى أوائل افتتاح المحرم سنة ١٣٠٢ هجرية أرسل المهدى منشورات إلى اتباعه يبشرهم بأنه سيفتح الخرطوم فى هذه السنة إن شاء الله ، لأنه عدد جملة (نصر من الله وفتح قريب) بالجمل الكبيرة تبلغ ألفا وثلاثمائة واثنين ، ثم توجه لفتح الخرطوم .

ولما اقترب من أم درمان وضع معسكره العام عند مكان اسمه (الفتيح) وأرسل جاسوساً يحمل ألف نسخة يدعو فيها أهل الخرطوم إلى التسليم ، فوزع الجاسوس الكتب وألقى بعضها فى المنازل والطرق ثم رجع وها هى صورة ما كتب فى الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الوالى الكريم ، والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد . فمن العبد المفتقر إلى الله محمد المهدى بن عبد الله إلى كافة أهالى الخرطوم هداهم الله إلى الصواب ، نعرفكم أن الله غنى عن العباد يهدى من يشاء إلى طريق الرشاد ويضل من يشاء (ومن يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) ، وقد طال ما تكررت منا النصائح وأردنا نجاة عباد الله وسلوكهم طريق الله ، فأناب إلى الله من أراد الله سعادته وخالف من خذله الله فأصمه وأعمى بصره .

فلا أدرى ما الداعى إلى عدم الانقياد ! أو لله شركاء ؟ أم إله منازع فى إرادته ؟ كلا ! بل هو القادر الفاعل لما يشاء ، فيجب على كل ذى بصيرة الوقوف معه على حد الأدب ولا يلتفت إلى غير لا وجود له من نفسه وأن يسلم الأمر لله الذى بيده التقلبات وإليه المصير .

ومن المعلوم أنى عبد دال على الله فمن اتبعنى فقد حاز السعادة الكبرى ومن خالفنى سيذيقه الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ، وقد أظهرنى الله رحمة للمؤمنين ونقمة على الملحدين المكذبين ، وقد طالما ذكرتكم بالله ورغبتكم فيما عنده وحذرتكم من وعيده فإلى متى الغفلة والتسويف ، وإلى متى مبارزة مولاكم بالعداوة ، ألم يأن لكم أن تميل قلوبكم الى ما ينفعكم فى آخرتكم ويجلب لكم الخير ويصرف عنكم الشر والضير ، أترغبون النجدة والفرج عند الإنجليز وتصرفون نظركم عن خالكم الذى بيده أموركم وقوامكم وهو القوى العزيز .

فما الإنجليز وأضعافهم مضاعفة بشىء فى جنب قدرة الله التى يعجز عن وصف كنهها كل لبيب ونجيب ، وما الغوث الا من عند الله القريب المجيب وحيث فهمتم ما ذكر فإنى لا أؤاخذكم على ما فات منكم ولا (تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) ، (وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) وعليكم أمان الله وأمان رسوله وأمان العبد ، وليس عليكم حرج فيما مضى ، وغايته أن من سلم سلم ومن خالف عطب وندم .

فهيا هيا ثم هيا الى طريق الفلاح والنجاح قبل قص الجناح ولا تخشوا

من شيء يحصل عليكم فإنا ناظرون فيكم قوله تعالى : (واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم) .

وفى منتصف المحرم سنة ١٣٠٢ هجم المهدى بجيشه على نقطة أم درمان فقابلته جنود الحكومة بنيران حامية ، ودارت الحرب رحاها واشتد ضرامها فقتل من كلا الطرفين عدد ، وكان للحكومة فى هذا المحل خندقين فأخذهما المهدى ، رشاد نحو عشرين طابية على ضفة النيل الأبيض وضع عليها المدافع وكانت مقذوفات تلك المدافع تقع فى الخرطوم ، ومكث المهدى محاصرا أم درمان الى أواخر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية .

ذكر المجاعة فى الخرطوم

فى أثناء حصار المهدى للخرطوم تفشت المجاعة فى الخرطوم حتى أن كثيرا من الناس صار لا قوت لهم غير ورق اللوبيا ، وصور قوت جيش الحكومة الصمغ مخلوط بجمار النخل ، ومن غريب ما حصل فى حصار الخرطوم أن الصيادين للسمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى اليوم الكثير منه ، ولما بدأ الحصار انقطع وجود السمك كأنها فرت من صوت المدافع وكما أن الأسماك هجرت شواطىء الخرطوم فإن بساتين المدينة كانت تقوم بحاجة السكان .

وفى أيام الحصار تلفت المزارع فلم تنبت وذبلت أشجار الفاكهة ، وكان

أسعار القوت فى المدينة حتى سقوطها ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الذرة ، وخمس ريالات ثمن الأقة من لحم البقر ، ولشدة المجاعة اختل نظام جنود الحكومة لما أصابهم من الجوع ولحق كثير منهم بالمهدى .

ذكر سقوط أم درمان

فى أواخر ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية فقدت حامية أم درمان القوت واشتد الحصار عليها ، وفى يوم ٢٧ من ربيع الأول قدم اليها غوردون ومكث معها ساعات يتبادلون الرأى ، وعلم منها أنها فقدت القوت منذ ثلاثة أسابيع ، فسأل قائدها فرج الله عما اذا كان قادراً على الخروج من الخندق واللحاق بثلاث بواخر استقر الرأى على انفاذها له فى الغد فأجاب بأنه قادر على ذلك . ثم ان جنوده فر منهم ثلاثة ولحقوا بالمهدى وأخبروه بأن الحامية ستأتيها البواخر فى صبيحة غد وتحملها الى الخرطوم فأوصى قواته بالتيقظ لها فوضعوا لها كمينين بين النهر والخندق .

وفى صبيحة الغد وصلت البواخر الى شاطىء أم درمان وخرجت الحملة من الخندق ، فخرج عليها الكمينان على غرة ووضعوا فيها السيف حتى اضطرت الى الرجوع الى الخندق بعد ما قتل منها نحو مائتين ، ثم أمر غردون قائدها فرج الله بأن يسلم نفسه هو ومن معه من الجنود الى المهدى ، فكتب القائد الى المهدى كتابا يسأله فيه الأمان له ولمن معه ، فأجابه المهدى بأنه هو ومن معه لهم الأمان .

وفى اليوم الأخير من ربيع الأول سنة ١٣٠٢ هجرية الذى ضرب أجلا

بالتسليم ركب المهدى فى عدد كبير من فرسانه حتى دنوا من الخندق وخرج القائد ومن معه من الجنود . وتقدم القائد نحو المهدى فترجل المهدى عن جواده وجلس الكل على الأرض وقدم للقائد ومن معه شراباً من العسل فشربوا . وعين فرج الله قائداً من قواده وضمه الى حمدان أبوعنجة . وفرج الله هذا هو الذى قتل بعد ذلك ملك الحبشة يوحنا يوم وقعة القلابات بين الأنصار والحبشة . وكان النصر فيها للأنصار على الحبشة .

وكانت المكاتبة مدة الحصار دائرة بين المهدى وغردون فعرض المهدى على غردون أشياء منها : اما أن يسلم . واما أن يسمح له هو ومن معه من المصريين والنصارى بالنزوح الى مصر وسفارة الخرطوم بشرط أن لايحملوا معهم الا ماخف وأن يدفعوا أجرة الجمال التى تحملهم الى حدود مصر وكان غردون يرسل الى المهدى الكتب تباعا فى بعضها الاستهزاء وفى بعضها يقول ان حكومة المملكة تفديه منه بعشرين ألف جنيه فرد عليه المهدى بأنه يسمح له بالذهاب بدون شىء .

ذكر سقوط الخرطوم وقتل غوردون

فى صبيحة يوم الأحد ٨ من ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ هجرية خرج المهدى من بيته يحمل مقطفا من الخوص مملوءاً من الرمل وتبعه الناس حتى انتهى الى ضفة النهر فأحاط به الناس وهو لا يكلم أحدا منهم وأخذ يقبض من الرمل بيده ويقذفه فى النهر ويرفع صوته قائلا الله أكبر على الخرطوم فيجاوبه من حوله بمثل مقالته حتى فرغ ما فى المقطف من الرمل ثم التفت

إلى من حوله وقال لهم إن سقوط الخرطوم على يده آن وقته ثم ركب زورقا واجتاز النهر إلى الضفة الشرقية وقصد معسكر القائد بن النجوم وبعد صلاة العصر ركب جملا واحتشد الناس حوله فأثنى على بن النجوم ثم أمر بأن تقسم المقاتلة على ثلاث فرق قلب وجناحين ويكون ابن النجوم فى القلب ومعه الفرسان ، ويكون قائد الميمنة محمد أبو فرجة ومعه حملة البنادق وقائد الميسرة محمد نوبا وهو شيخ قبيلة بنى جرار ومعه المسلحون بالسيوف والرماح وأن يكون هجوم القلب على النقطة الوسطى من الخندق وهى مقر فرج الزين قائد الحامية وهجوم الميمنة على الخندق الذى يلى النيل الأزرق جهة برى وهجوم الميسر على الخندق مما يلى النيل الأبيض .

وخطب المهدى فى الجيش قائلا لا يتعرض أحد منكم بسوء على غردون بل حافظوا عليه أشد المحافظة حتى توصلوه إلى سالماً لم يصبه مكروه فإنى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا المعتقل بسبب الثورة التى أقامها فى مصر ضد الإنجليز . ثم خطب فيهم يحثهم على الجهـــاد ويذكرهم بنعيم الجنان وما أعده الله للمجاهدين فى سبيله .

ثم قفل راجعاً ومعه الخليفة التعايشى وأمر المهدى حمدان أبو عنجة قائد جيشه فى أم درمان بإطلاق القنـابل تباعا على الخرطوم من عصر يوم الأحد ٨ ربيع الثانى إلى ظهر يوم الإثنين ٩ منه .

هذا ما كان من أمر المهدى . وأما ما كان من حالة المدينة والحامية وهى جيش الحكومة فقد أصبحت يوم الأحد وجو المدينة متلبد بالغيوم والشمس محجوبة عن العيون والبرد شديد وهذا مخالف لهواء البلد وتزايد البرد على

جنود الحكومة وتركهم كأنهم صرعى فى مواقفهم على الخندق ولم يتيسر لهم طعام ساخن يخفف عنهم الجوع والبرد وينعشهم .

وفى منتصف النهار ذهب غردون إلى الخندق ليتفقده وينظر حالة الجيش وكان يشجع الجنود ويحثهم على المقاومة والثبات فلم يصغ أحد لما يقوله وكان كمن يصرخ فى برية أو يطلب الماء من جذوة إذ العساكر كما قلنا لاحراك بهم ولاقوة ولا حماس ولا جلد عندهم فقواهم انهارت لما بها من الجوع وشجاعتهم ذهبت لفقدهم الطعام والجوع هو جند الله العظيم ، فعاد غردون إلى منزله وقد أخذ منه اليأس كل مأخذ .

ولدى عودته اجتمع عنده قناصل الدول ، وكان الليل قد أقبل ولاتزال السماء متلبدة بغيوم حجبت نور القمر ، فقال غردون للقناصل قد رأيتم تجمع العدو ، وإننى بتفقدى للجيش وجدت الجنود قد فقدوا كل قوة وشجاعة يقدرون بها على حراسة الاستحكامات فى هذه الليلة المشئومة وإننى موقن بسقوط المدينة قبل طلوع الفجر ، ثم هموا بالانصراف فودعهم ، وكان يحنى رأسه ويحرك شفتيه ، وكأنه يقول : هذا آخر العهد بكم ، ثم دخل الأنصار المدينة فى هذه الليلة ولم يلقوا أى مقاومة تذكر ، ووصلوا إلى منزل غردون عند طلوع الفجر وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ، وكان الذى قصد منزل غردون القائد محمد نوبار ومعه زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليهم ثم قال لحراسه لاتبدو معارضة لأى أحد يريد الوصول إلى . وإياكم أن تبدوا أقل دفاع ، ثم تقلد كسوته التشريفية الصغرى ووضع عليه رداء حريريا كوفيا وربطه بعقال كزى الأعراب فدخل عليه

محمد نوبار وبعض مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسى ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الأنصار وقال : أين أموالك ياغردون ؟ فتبسم تكلفاً وقال : أين محمد أحمد المهدى ؟ فابتدره الرجل بطعنة فى صدره خر منها صريعا يتخبط فى دمه ، وصاح أحد الحاضرين على الطاعن لا تقتله فإن المهدى أمر بعدم قتله فأجابه محمد نوبار بأن الخليفة عبد الله التعايشى أمر بقتله وقال إن قتله خير من استبقائه ، ثم سحبوه إلى قاعة القصر ، وكان به رمق فقطعوا رأسه ، ثم بعثوه إلى المهدى .

ولما وصل رأس غردون إلى المهدى استنكر قتله وصاح ، لم قتلتموه ؟ ألم أنهكم عن قتله ؟ وبدت عليه علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل منزله وغنم المهدى من السلاح مدفعان كروب وثلاث مدافع متليوز وعشرون مدفعا جبلى وستة آلاف بندقية رامنجتون جيدة وأربعة آلاف بندقية من هذا النوع بها خلل ، وعدد لايدخل تحت الحصر من البنادق ذات الطلقتين ومن نوع آخر قديم . وأما الذخيرة فعشرون قنبلة لمدافع الكروب وثمانمائة ألف برميل مملوءة من البارود وغير ذلك .

وفى يوم الجمعة الموافق ١٣ من ربيع الثانى سنة ١٣٠٢ هجرية ركب المهدى وقواد الباخرة إسماعيلية فاجتازوا بها النهر إلى الخرطوم ، ثم قصد المهدى المسجد فصلى فيه بالناس صلاة الجمعة ، ثم خرج بعد الصلاة إلى القصر الذى كان فيـــه غردون ثم فوض إلى عبد الله التعايشى أمر حراسة الجبخان وانتدب عبد الله بن عبد الرحيم أومره بتعبئة الخرطوش وإعداد آلة الحرب وإصلاح آلة الحرب .

ولما كانت الخرطوم عاصمة إقليم السودان فسقوطها فى قبضة المهدى أصبح السودان خاضعاً له فما لم يسقط فعلى وشك السقوط عن قريب وقد سقط بعد بلا مقاومة .

ذكرنا أن المهدى كان معسكراً فى جهة الفتيح ليكون بعيداً عن مرمى المقذوفات .

وفى أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣٠٢ هجرية بعد فتح الخرطوم أمر ببناء بيت له فى أم درمان يبعد عن النيل بألفى متر تقريبا وبنى مسجداً نحو ستمائة متر وضعت له فيه مقصورة من ألواح الزنك وكان منزله متصلا بالمسجد ولذلك كان يصلى الأوقات فى بيته والناس يأتمرون به وهم فى المسجد وكان لا يصلى فى المقصورة إلا الجمعة وكان جهورى الصوت بالقراءة وكان يطيل القيام والركوع والسجود ويجهر بالبسملة فى الصلاة ويقبض .

ذكر مرض المهدى ووفاته

ونبذة قليلة من تاريخ المؤلف

فى ليلة الأربعاء لأربع ليال خلت من شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن سنة ١٣٠٢ هجرية أصيب المهدى بالحمى . وفى يوم الخميس اشتدت عليه فجىء إليه بأطباء مصريين فقرروا أنها من حمى التيفود وأن حالته خطيرة وعملوا له العلاج .

وفى صبيحة يوم الجمعة أمر الخليفة عبد الله التعايشى أن يخلفه فى صلاة

الجمعة وكان قبل ذلك يخلف على حلوا [أو أحمـــد الجعلى ، وفى يوم الأحد ثامن رمضان اشتد عليه المرض وكان يرفع صوته بقول الله عز وجل : (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

وفى يوم الإثنين تاسع رمضان سنة ١٣٠٢ ضحوة الساعة الرابعة فاضت روحه إلى رحمة ربها وكان محاطا بقرابته وخلفائه وكان المهدى قد جعل خليفته الخليفة عبد الله التعايشى فخرج الخليفة عبد الله على الناس بعد وفاة المهدى وقال لهم كما قال أبو بكر رضى الله عنه يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كان يعبد المهدى فإن المهدى قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، ثم حفروا له قبرا فى الغرفة التى توفى فيها .

وفى منتصف [الساعة العاشرة صلى الخليفة عبد الله التعايشى بالناس صلاة الظهر ثم استدعى نحو عشرين رجلا من أقارب المهدى فدخل بهم فى الغرفة واصطف النـاس خارج الغرفة فظلوا عليه يسمعون الناس التكبير ، وبعد أن وورى التراب خرج الخليفة عبد الله إلى الناس فرقى المنبر وخطب ثم بايعه الناس ثم كتب هو وأقارب المهدى منشورا بوفاة المهدى وبيعة الخليفة عبد الله إلى جميع الجهات ، وفيـــه : أن المهدى استخلف عبد الله وأصى بطاعته .

وبعد : فهذا ما تيسر لى من تاريخ محمد أحمد المهدى بن عبد الله راجيا من نظر فيه أن ينظر إليه بعين الرضى والصواب والله الموفق للصواب .

ولما كان هذا التأليف عمله المؤلف فى التاريخ وذكر نبذة قليلة من تاريخه فهو محمد وملقب بالداه أحمد ولد المؤلف فى قطره شنقيط وتربى

فى كفالة والده أحمد رحمه الله رحمة واسعة ووالدته عائشة تغمدها الله برحمته الواسعة وكان أكبر همهما أن يربياه أحسن تربية وأن لا يشتغل إلا بطلب العلم إلى أن يكون من أهله وبعد بلوغه بسنين قليلة اشتاق إلى الحج وتيسر له ذلك فحج حجات وجاور فى المدينة المنورة مرة كان فيها يقف أمام الروضة وأمام أشرف الخلق سيدنا محمـــد صلى الله عليه وسلم فيزور ويدعو الله عز وجل بالعافية والستر فى الدنيا والآخرة والمغفرة له ولوالديه ولأبنائه وأزواجه وقرابته والتوفيق وحسن الختام .

اللهم اغفر لمؤلفه وارزقه سعادة الدارين وأظله تحت ظل عرشك يوم لاظل إلا ظله وحاسبه حساباً يسيراً واسقه من حوض نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واحشره تحت لوائه وارزقه جواره هو ووالديه وأزواجه وذريته وقرابته فى أعلى جنتك جنة الفردوس مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

تم تأليفه يوم الجمعة الموافق ٨ من رمضان سنة ١٣٧٨ من هجرة أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وتم طبعه للمرة الثانية فى يوم السبت ٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ هـ
الموافق ١٧ من فبراير سنة ١٩٦٢ م

فهرس كتاب

تاريخ محمد أحمد المهدى

اطلبـــوا :

دعوة الإســــلام

ديوان خطب منبرية حديثـــة

تأليف

الشيخ محمـــد مصطفى أبو العـــلا

المدير العام للتعليم الابتدائى بالأزهر الشريف / سابقا

فى جزآن

يطلب من مكتبة القاهرة بالأزهر بمصر

الفتح الربانى

شرح نظم رسالة ابن أبى زيد القيروانى

الآيات المحكمات

في التوحيد والعبادات والمعاملات

مشروحة ومحققة

الثمن ٢٥ ص

إضاءة الدجنة

في اعتقاد أهل السنة

للشيخ أحمد المقرى المغربي

بشرح الشيخ محمد أحمد الداه

الثمن ١٠ قروش

كتاب الإعراب

عن

قواعد الإعراب

ديوان

مُنعش الأبدان

بلغة أهل السودان